بِدايَة أمْ نِهايَة
رواية
جزء
١
beginning or end
Between fact and fiction
عبدالرحمن دبشه

بِدَايَةٌ أَمْ نِهَايَةٌ.

للكاتب:

عبدالرحمن دبشه

للمزيد من الكتب على منصة:

kotobati

Instagram:

@abdalrhman_dabsha

@a__dabsha

Facebook:

Abdalrhman Dabsha

A.D
دار جنائن النور للنشر الالكتروني
@janaynalnour
+963 998 571 316

الجزء الأول

الفهرس:

الحلقة الأولى: بداية أم نهاية (15)

الحلقة الثانية: ضوء ماسا (24)

الحلقة الثالثة: عودة الأمل (39)

الحلقة الرابعة: ظلال الصمت (51)

الحلقة الخامسة: لغز ماسا (58)

الحلقة السادسة: لوعة القمر (65)

الحلقة السابعة: رسالة من حيث لا اعلم (73)

الحلقة الثامنة: من أين أتت! (85)

الحلقة التاسعة: بلا ملامح (92)

الحلقة العاشرة: جوار القدر (106)

الحلقة الحادية عشر: صباح أم مساء (119)

الحلقة الثانية عشر: 1:17 (127)

الحلقة الثالثة عشر: ليلة القدر (144)

الحلقة الرابعة عشر: سرديات الغسق (157)

الحلقة الخامسة عشر: ليلة الأحداث (171)

الحلقة السادسة عشر: خيوط الذاكرة (185)

الحلقة السابعة عشر: تشابك القدر (196)

الحلقة الثامنة عشر: زفرة النار (208)

الحلقة التاسعة عشر: رحلة في زوايا الروح (220)

الحلقة عشرون: اصداء الزمان (231)

الحلقة الواحدة والعشرون: ابجديات القدر (246)

الحلقة الثانية والعشرون: ظلال وحدتي (258)

الحلقة الثالثة والعشرون:

همسة الأمس (272)

الحلقة الرابعة والعشرون:

أحببته (288)

الحلقة الخامسة والعشرون: بكيت لأجلك (305)

الحلقة السادسة والعشرون:

فهم الحقيقة غلط (322)

الحلقة السابعة والعشرون:

سأعترف (343)

الحلقة الثامنة والعشرون:

بقع الصمت (359)

الحلقة التاسعة والعشرون:

هل هي البداية؟ (384)

الحلقة ثلاثون و الأخيرة: 1/9 (409)

إهداء:

إلى من أحب، زهرة الكرز التي بزغت في حديقة قلبي، بكل النقاء والعذوبة التي تحملها الأيام رغم تقلبها، إلى أنتِ...

الوميض في الأفق، البسمة التي تراقص الأمل في عينيّ المتعبتين.

أهديكِ هذه الرواية؛ فصول تنبض بحب مخبأ في أعماق ثنايا قلبي.

أنتِ، من تحاكي نجمة ساطعة في سماء أحلامي، وقد صرتِ مهجة الفؤاد التي تضيء كل زوايا الروح الداكنة.

إلى من أغلقتُ باب قلبي خلفها، وأصبحتِ الصوت الهادئ الذي يناديني في صخب الحياة، والنسمة التي تخفف لهيب النهار.

أهديكِ هذه الصفحات، التي خطّتها يدٍ لم يرتجف قلمها
إلا لحظة تذكّركِ، كل كلمة فيها تُعبّر عن مدى
المخزون الغزير للحب الذي لكِ وحدكِ، في جوف قلبي.
فلا تدعيني أتخبط وحيدًا في هذا الوجود المليء بالأسرار
والأمل الخفيّ. للحظاتي معكِ الوان السعادة وعزف الحياة
الأبدي؛ فكوني دومًا مصدر إلهام هذه القصة، القصة التي
لا تُروى إلّا بكِ ولكِ.

مع باقات من الورد وخيوط الفجر الأولى، أهديكِ كلماتي
المكتوبة، نبضي المرصّع بالأشواق، ورواياتي المفعمة
بكل ما هو جميل وعميق، كجمال روحك النادر.

بقلمِ من أحبّكِ أكثر من القصائد نفسها .

• • •

رسالة لها:

لن أتركِ في الأفق غيمة تذرِفك، لن أجعل النسمات تقسو عليكِ ببرد البعاد.

لروحكِ، رفيقٌ أنا، بصمتي أحرس خُطاكِ، وفي حضوري، كدرعٍ أتقي سيول الأسى.

طيف دمعكِ، يا فُلك النجاة، يستنهض فيّ جحافل الوعيد، لأتحول إلى سيفٍ بتار للظالم.

بيمين العهد، بصدق القسم، ستروي دماء من أبكاكِ أرض العدل.

فقد أقسمتُ، بروحي الثائرة، أن أكون لكِ سنداً، حصناً، والبعد لا يعني الغياب.

"أفعالي لا تأتي بلا انتظار، لكن عند حلولها، تغيِّر الأقدار."

وها أنذا، ظلُّك الوارف إن هبَّت رياح القسوة، ومرساك

في بحار الحيرة.

أبصر بعيون القلب، أدرك بلمسة حنان، أحمي، أصون،

وأكون الوجود الذي يُحيل الليل نهارًا .

بكلِّ كياني أتوعد، لن تخشي بعد اليوم وحشة

الدروب، فأنا سماؤكِ المُطِلَّة بالنجوم .

لا تُرهقكِ الوحدة، ولا تُثقلكِ وطأة الأسى، فإنَّ بوعدي لكِ

حقٌّ يتجدد .

وإن تكررت الأيام، سيكون لزمانكِ ألقٌ في صدر

الأبد .

"فليكنِ الرهان: حين يأتي وقت الفِعل، تُزهِر الأرض

بالعدل والأمان."

أنتِ الأمان في الروح، الأزلية في لحظة، الحقيقة أمام العين.

أحبك بعمق البحار، بشموخ الجبال، بسكون الليل، ولا

أرى في الوجود سواكِ.

أجعلكِ قلبي وعقلي وكياني، فأنتِ الأغنية في صمتي،

الضحكة في حزني.

إليكِ أقدم الروح بلا تردد، ففي حبكِ استكمال لوجودي.

مهما عصفت الأحداث، فإن ثقتي بكِ لا تتزعزع، فأنتِ نقطة

اليقين في زمن الشكوك.

بعينيكِ أرى الكون صافيًا، وكل خطأ يتلاشى، وأنتِ

وحدكِ الصواب.

"دموعكِ، أيا عزيزتي، تلك الدماء التي تجرح فؤادي،

فأكفّي البكاء وأداوي لكِ القلب بحبي، دائمًا وأبدًا."

"ما لُمح للذهن وارتسم على صفحات الفكر، كان

الشرارة الأولى لرحلة التأليف.

ذاك النص المُطالَع، صار مرسى للأقلام على شطآن الكتاب."

. . .

بِدايةٌ أمْ نِهاية

مقدمة:

في عالم تعبق فيه رائحة الخيانة وتستكين فيه الأرواح المنكسرة، ينبض قلب الرواية هذا بوعدٍ مُجْلَجَل: لن أدع سُحب اليأس تُمطر فوقكِ حزنًا، ولن أسمح للرياح أن تلامسكِ بوخزات الفراق.

في صمت الليل، أسهر حاميًا أطيافكِ، وفي ضجيج النهار، أقف كحارس لآمالكِ.

وعندما يحاول ذاك الدمع إثقال أجفانكِ، أتصدى لأعاصير الحزن بعنفوان مدافع.

فلا تخفي، فلك النجاة هو أنتِ، وفي دموعكِ
يتحدى الأمل شراسة الأقدار.
وها هو عنادي يتخذ من يمين الصدق عهدًا، ومن
دموع الظلم رمزًا للثورة، سيروي أثر جفاف
الحق، وستخضر أرض العدل بندوب جور
السنين.
أما ذاك الوعد الصادق الذي تُطبقه روحي الثائرة،
والذي أورثتكِ إياه كعربون محبة وإخلاص،
فإنه يتشبث بذراع الزمان، قائلاً: 'إن لم تكن
اليوم، فغدًا سيُعلن القدر على يديّ تلاوة
عدالته.'

ومن هنا، مع كل صفحة تُقلب، وكل كلمة

تُسطر، نعود لنجمع شتات قصتنا؛ نعود بكم إلى

أين بدأت هذه الحكاية، إلى بداياتها الأولى,

نستعيد روايتنا من الصدى الذي انطلق بها صوت

الوجود حتى الآن.

لنبحر عبر الزمن، نصحبكم في متاهة

الماضي والحاضر، حيث تتشابك خيوط القدر مع

نسيج القصص.

تتعانق الأحداث والأسرار، وتتجلى العبر في

جمالها وقسوتها.

سنعانق الأيام التي حملت في طياتها وعود

الإخلاص والتحديات التي شكلت منا ما نحن عليه

اليوم.

عبر كل سطر وبين كل كلمة، سنرى كيف تتفتح الأرواح، كيف تبزغ الأماني من رماد اليأس، وكيف يُعاد سرد الحكاية بأصداء جديدة، لتنفض عن نفسها غبار النسيان.

نقف على مشارف زمن جديد، حيث المصائر تُكتب والأحلام تُرسم بأنامل من أمل.

مع كل طيف يمر، مع كل لمحة من الزمان، نلملم تفاصيل هذه الرواية، فتشدو الحروف بملحمة لا تُنسى، تصدح بالحق والعدل.

فما بدأ كومضة فكرة، تتسع اليوم لتحتل مساحات الوجدان، قصةً متجددةً، وطودًا شامخًا في ملحمة الحياة.

تحتضن الصفحات الآتية أصداء المواقف والمعارك، حبات الفرح المتناثرة، ودموع الألم التي لم تعد تقطر بل تروي. نستذكر كيف كانت كل بداية ليست سوى انطلاقة للقصة التي لا تنتهي؛ لتظل تحكي، وتروي، وتعيد سرد الحكاية منذ بزوغها الأول وحتى هذا الزمان.

وها هي المقدمة تصل إلى ذروة سطورها، حيث تكتمل الصورة وتتكثف الحروف لتنطلق نحو فضاءات الرواية. لقد وضعنا الإطار، ورسمنا الخطوط العريضة، والآن تقف القصة على باب البداية، تنفض عنها غبار الصمت وتعتمر رداء الكلمات، مستعدةً لتأخذكم في رحلة عبر صفحاتها.

فلنطو صفحة المقدمة بشغف معلنين ميلاد فصل جديد، فصل يحمل في طياته تنهيدات الأمس وأحلام الغد.

بين جنباته، تتنفس شخصياتنا العمق وتضطرب الأحاسيس بين السطور.

هي دعوة للانغماس في تيار الحكاية، لنتشارك الأفراح والأحزان، ننهل من ينابيع الخيال، ونعيش معًا كل التقلبات.

والآن، بعد أن قُدمت التمهيدات وشُحذت الأقلام، اتبعونا إلى عوالم لم تُكتشف بعد، حيث كل فصل يعد بمغامرة، وكل جملة تخبئ مفاجأة.

إنها اللحظة التي تبحر فيها الرواية بأشرعتها المفتوحة، مُخترقةً بحر الكلمات، متوغلة في أعماق الحبكة، متجهة نحو قلب القصة.

فمع نسمة هذا الفصل الجديد، نرنو لرحلة الكشف والتعرف، إلى حيث التوقعات تتبدد والحقائق تتجلى، نتقدم معًا نحو حلقات روايتنا، مُتأهبين للغوص في ملحمتها.

استعيدوا أنفاسكم، واستعدوا لأولى الخطوات.

• • •

الحلقة الأولى:

بداية أم نهاية

عيد:

في زحمة الأيام وتتالي الصباحات التي تنسج خيوط شمسها عبر نافذة القاعة، ظللت أراقبها بصمت، تلك الفتاة التي لم يلدها الخيال، تخطو إلى حيث يكون المستقبل، في نفس الأرجاء التي أحتضن كتبي وأحلامي على وشك الانطلاق نحو عالم الجامعة.

ماسا، كلمة تعني الألماس في لغتي القلبية، جوهرة بحق تمشي بين البشر دون أن تدرك الأثر الذي تتركه خلفها.

إنها الفصل الأول من قصتي معها، أو قل مع أطيافها، التقائي بها من بُعد، حيث أعيش على حافة عالمها دون أن تدري.

أنا عيد، وها أنا بين مقاعد الدراسة أسير في متاهة الأقدار، أعد الأيام متسللاً نظراتي خلسة على تلك الفتاة الساطعة كشعاع الشمس.

جمالها ليس مما يُحكى، بل مما يُرى ويُعاش،

فعيناها لؤلؤ نادر وشعرها الأشقر تيجان ذهب على جبين الزمن، وقامتها الأنيقة كمنحوتةٍ أعادت تعريف الجمال في نظري.

أشعر بأعجابٍ يتنامى بداخلي كلما مرت بي،

وأصارع نفسي كي أجد سبيلاً للتعرف عليها.

تملؤني رغبة أن أكون السبب وراء ضحكتها،

أو مجرد شخصٍ تنتظر رؤيته كل يوم.

لكني، بتلك اللحظات، مجرد وجهٍ في الزحام،

قلبٌ بين الصفوف، لا يدري إن كان لها أدنى

معرفة بوجوده.

تمنيتُ لو أنني في السنوات الأولى من حياتي

المدرسية، حيث الوقت يمتد أمامي كفضاء

للفرص.

لكن الأيام تدير عقاربها دون انتظار، وتلوح ساعة

الوداع بيديها الغامضة، ما يزيدني خوفًا من خسارة

فرصة التعرف على ماسا، هذه الفرصة التي لم

تولد بعد.

القصة تنطلق، والسطور تفتح أبوابها، وأنا مشدود

بين الرغبة في القرب والخوف.

هذا هو الصدى الذي بدأ به قلبي حديثه، ومن

هذه النقطة نرسم معًا مسار رواية لم

تشهدها الصفحات من قبل.

على أمل ألا يكون فصل الوداع هو ما ينتظرني

في ختام الرحلة.

في ذلك اليوم حيث الشمس تتوسط السماء، كان الوقت يشير إلى الثانية بعد الظهر، الساعة التي تفصلنا عن الموعد المصيري

جلسة وحيدة ما قبل الأختبار النهائي الذي يمثل ختام مسيرة شاقة في أروقة المعهد وتحديات المرحلة الثانوية.

كان الفرح يختلط في قلبي مع نوع غريب من الحزن، حزن ممزوج بنكهة الوداع الذي لا نرغبه.

كانت ماسا، برقتها وجمالها النقي، تسكن الخواطر والأحلام، تحتل كل لحظة وثانية، دون أن يجمعنا حديث.

العجب كيف تمكنت من الاستيلاء على الفكر والقلب دون أن نتبادل سوى النظرات.

هذا هو سحر ماسا...

وسط هذه الأحلام المبعثرة، أيقظني صوت

الساعة كأنه تحذير متأخر.

لقد فات الوقت لجلستي الدراسية الأخيرة.

هي ذاك الرتابة المدرسية التي ما كانت

لتستهويني لولا وجودها.

آه من الحزن، يُخبرنا بكثافته فقط حين

نستعد للفراق.

على الطريق إلى موقع الحصة التعليمية،

وجدت صديقي عمار يرافق خطاي، هو

الصداقة التي لا تبلى، التي لم تخن وعدها

مع تقلبات الزمان.

وقفت عند عتبة الفصل، أتأمل الدخول وعمار يغيب داخل الغرفة، ثم يعود متسائلاً عن سبب ترددي.

أخبرته بانقباض نفسي، واختار أن يترك لي حرية القرار.

لو يعلم بأن القلب متعلق بأمل آخر...

استسلمت للانتظار حتى أذن لنا المدرس بالدخول.

ومع كل خطوة في تلك القاعة، كانت نفسي تبقى خارجًا، حيث الأحلام والذكريات.

لا علم لي بما جرى في تلك الحصة، كانت كلمات المدرس تتحول لهمسات بعيدة، والوقت كأنه ممتد عبر سنين.

بمجرد ختام الجلسة، هرولت خارجاً، نفسي تبحث

عن أثر ماسا .

التفت يمنة ويسرة، وفي كل الأرجاء، دون أن

أجدها .

يا ترى، هل سينتهي كل شيء قبل أن تتحقق

اللقيا ؟

جسدي ينسحب من المعهد والروح تتخبط في ظلمة

الوداع، رأسي خافض والفكر يرفض استقبال أي

وجه سوى وجهها .

وأسير بجانب الأسوار الصامتة متسائلاً: هل تختفي

ماسا لتترك الوداع يكسر أشرعة الأمل؟

اتقدت الأسئلة في داخلي، وما كادت قطرات

الأسى تبرق في الأفق حتى شعرت بلمسة خفيفة

تقطع رتابة الحزن...

من يمكن أن يكون؟

الحلقة الثانية:

ضوء ماسا

زفر النسيم البارد مع زحمة الأفكار التي تلاحقني، أخطو خارج المعهد والحزن يخيم على ملامحي، أبعثر نظراتي في الأرض، آملا ربما أن أجد بين حصياتها ما يريح قلبي المثقل بغياب ماسا.

كان ذلك اليوم الأخير، وكان ينبغي أن تكون الوداعات، لكنني لم أرها، وكأن الزمان أصر على ألا يجمعني بها لآخر حين.

فجأة، أحسست بلمسة مألوفة تربت على كتفي؛ التفت سريعًا لأجد عمار يقف هناك، صديقي العتيد في الدرب.

طفقت أتأمله وهمست بصمت: "أيها القدر، ألهذه الدرجة تحب كتابة مقالبك بحروف الإحباط؟"

"إلى أين انت ذاهب؟ الا تريد أن تودع المدرسين؟"

صوت عمار يخترق حاجز أفكاري بسؤاله المباغت.

"لا، لا أريد أن أودع أحدًا كان لقاؤك هو ما أنتظره."

كان ردي مكتنزًا بشيء من اليأس الذي لم أستطع إخفاءه.

"كما تشاء..." قالها عمار ثم انصرف لينهي توديعاته.

وقفت هناك، مقابل باب المعهد، مراقبًا الطلاب وهم يتبادلون الأحاديث والصور مع المعلمين.

كيف يمكنهم الضحك والمزاح وأنا موشك على الغرق في بحر الوحدة؟ "أهم من نسيج آخر؟"

تساءلت في عمقي.

وفي أثناء ذلك، بلحظة غير متوقعة، أزاح زجاج الباب البصيرة الغشاوة التي أحاطت بناظري، وإذا بها...

ماسا.

كأنما الألوان قد هربت كلها لتستقر في جلال مظهرها.

دخلت المعهد دون وعي، متبعًا خطاها بنظراتي التي حلّقت بها نحو طيفها.

كنت أود الحديث إليها، لكن كيف؟

لا رابط بيننا سوى دقات قلبي التي تعلو

كلما حانت منها طلّة.

من بُعد، رأيتها وهي تودع المعلمين بابتسامة،

ولمحتها تخطو نحو الخروج.

دفعني قلبي إلى الباب.

خرجت ووقفت هناك كالمخبأ وراء قناع

اللامبالاة.

عندما اجتازت العتبة، تقاطعت النظرات،

وبدل أن تعرض عني بفتور، ابتسمت لي.

تجمّدت خطواتي، وتعلّق نظري بتلك اللحظة

الخاطفة، التي لـم أتصور لها وجودًا إلا في

أحلامي.

ماسا، ببراءة الصباح الأول ورقة النسيم العليل،

وجّهت نحوي ابتسامة تقطع بسيف من نور كل

خيوط اليأس التي كنت قد أحكمت بها حول

قلبي.

تلك الابتسامة، كانت بمثابة صاعقة أدخلت الصدمة

إلى أوصالي، فأشعلت فيها اضطراباتٍ ونبضات غير

منتظمة.

كيف لها، وهي التي لم تعرفني، أن تُقدم هذه

الهدية التي لم أجرؤ حتى على تمنيها؟

ابتسامتها لم تكن مجرد تسلية لحظة وداع، بل

كانت إيذاناً ببدء قصة ما تزال أحرفها معلقة في

فضاء الإمكان.

وكأن الزمن توقف، والأرض كفّت عن

الدوران، وانحصر الكون كله في حبات

رملية متناثرة بيننا، ترصع طريق لقاء عبرته

ابتسامة واحدة.

ذهولي تجسّد في عينيّ نجمتين خاويتين تسعى

وراء خيط الضوء الذي أشعلته.

في تلك اللحظة، فقدت كل الكلمات معناها،

وصار كل شيء مجرد همسة في معبد

الصمت.

تلك الابتسامة ملأت قلبي بوجدٍ لم أدرك معالمه

بعد، ووضعتني أمام بوابة من الأحلام الملموسة،

يتيم القلب أنا، وجدت فيها عائلة.

ابتسامتها تلك صكت للأمل في روحي وثيقة، فاض

بها القلب لأقبل بالابتسامة على محياها وتمضي.

وبينما أغرق في خيالاتي وأنا أتمتم بصلاة خجولة،

قاطعني صوت عمار بعباراته الممزوجة بالمرح

والإصرار: "هيّا بنا، فالحياة تنادينا إلى فصل جديد."

الوطن داخلي تمايل بين فرحة الرؤية والشوق إلى لقاء

تفصله عني مساحات من الصمت وسماوات من

التساؤل.

بخفقانِ قلب، وبدعوات تعانق السحاب.

بعد عودتي أغلقتُ باب غرفتي خلفي، ليس كنهايةٍ،

بل كتوق إلى مؤلّف قادم ستُخط فيه ابتسامة ماسا

الأسطر الأولى.

تحت ضوء النجم الوحيد الذي زين سماء تلك الليلة، كان الزمن يرقص على إيقاع التوترات المتناغمة مع دقات قلبي.

"غدًا يوم الحسم" كان كل ما يتردد في ذهني، في حين أن ابتسامة ماسا كانت خيط النور الذي يشق عتمة ليلي، تلك الابتسامة التي جعلت من القلق فراشة تحلّق في أرجاء صدري عوضاً عن كونه جلادًا يضربني بسياط القلق. أتذكر طيفها وتتسلل الخيالات إلى مخيلتي، ترسم المستقبل بفرشاة الأمل.

الحياة المدرسية التي كنا على أعتابها، قد تنفتح مثل
قمرة تفوح منها عبق الذكريات وتبشر بالجديد بعد
حفل التخرج.

كانت ماسا هي الكنز الذي لم أريد أن أفقده.

حين دوى المنبه كأنه قذيفة تخرق صمت الفجر،
نهضت متحفزًا كجندي يستعد لخوض أعظم
معاركه.

رتّبت أموري وأطلّت أمي بعينين تملؤهما الرجاء، تدعو
لي بنجاح أعرف في أعماقي أنه لا يقارن بنجاحي في
الاحتفاظ بماسا في قلبي.

كان الطريق إلى المركز اختبارًا بحد ذاته، كل
لحظة تمر تزيد من وتيرة الأفكار المتصارعة في
رأسي.

وعلى الرغم من أن صديقي عمار وزملائنا كانوا هناك،

إلا أن غيابها كان يصرخ في داخلي، يجعل كل الوجود

على هامش الحياة.

أقل من عشر دقائق الآن، الفصل الأخير من رواية تعلقي بها

قد يكتب.

لكن الأبواب تفتح ولا أثر لها .

"كيف لي أن أجتاز هذا الاختبار وأنتِ لغز مستعصٍ في

روحي؟" تساءلت داخلاً القاعة.

بفضل الله، كان الاختبار لطيفاً، تنساب الإجابات من قلمي

كما تنساب ذكراها في ذهني.

ومضت الأيام كما تمضي الغيمة في صفاء، تحمل القلوب

معها .

واستسلمنا جميعًا لترقب النتائج، دون علم بما يخبئه لنا

القدر من وقت.

وبعد الترقب الأيام و الساعات الطوال التي كنا

نعدها كأوراق الخريف المتساقطة، جاء اليوم

الموعود .

يوم لا يعرف الهدوء طريقاً إليه والقلوب تعلو وتهبط على

قيثارة القدر.

كانت النتائج قد نشرت، والصمت يخيّم على

الجميع .

نهضت من فراشي بين شعورين متناقضين: هلوسة

اليقظة والخوف الباطني من المجهول.

استدعتني قدماي إلى مكان الإعلان، وكأني

مسحوب بخيوط غير مرئية.

النظرات كانت تتقاطع في الهواء، تبحث عن الأسماء

المألوفة.

قلبي كان يعتصر بين أضلعي، ينتظر الحظة التي ينطلق فيها كمطلق السهام.

وقفت أمام الورق المعلق وعيناي تلتمسان النجاة، كالغريق يلتمس قشة في اللجة.

سطرٌ بعد سطر، اسمٌ يلو اسم، وإذا بحروفي تطل من بين الأسطر كنور الفجر يبزغ من بين الظلمات.

"ناجح"، كلمةٌ صغيرةٌ بحروفها لكن بوزن العالم بمفردها.

خفق قلبي بجماح فرح هادر، يصدح في صمت الغرفة كأناشيد النصر.

في تلك اللحظة، شاركت الجميع فرحتي، لكن فؤادي كان يتطلع لشيء آخر، لشخص آخر. أين هي ماسا؟ هل نجت يا ترى؟ هل ستكون هذه اللحظة بداية دربنا معًا أم نهايته؟

وبدا وكأن القدر يعرف إلى أين يوجه القصة، ففي خضم الابتهاج وتوزيع الهدايا والعناق بين الطلبة، رأيتها.

كانت هي؛ ماسا، تقف على الجهة الأخرى.

ابتسامتها تلك، بريقها كافٍ ليشعرني بالاطمئنان الذي طالما افتقدته.

كان وجهها يعكس فرحة النجاح، تلك الفرحة التي لم تحتاج لكلمات كي تنقل فحواها. فقط تلك الابتسامة كانت بمثابة الرسالة التي تقول "نجحت".

لم أقصد الاقتراب منها، ولا الإخلال بتلك اللحظة التي كانت تبدو كاللوحة، كافية بذاتها، جميلة بصمتها.

لم استجمع قوتي لأجرؤ على خلخلة هذا الهدوء الذي كانت تسكن فيه، فأدرت ظهري وغادرت.

في طريق العودة إلى المنزل، كانت الطرقات تمر سريعة، لكن الوقت كان يمضي ببطء.

كان خيط الفرح يحيط بي من كل جانب لكنني، في داخلي، أشعر بثقل الندم.

كان بإمكاني أن أخطو خطوة واحدة، أن أبادر بحديث أو حتى بسؤال بسيط يضفي على هذه اللحظة الباردة الدفء الذي احتاجه.

ولكن لكل خطوة نتردد في اتخاذها ثمنٌ ندفعه من رصيد الوقت الثمين.

وها أنا ذا، أخلو بنفسي أعاتبها على ترددي، أسائلها عن السبب وراء عدم سؤالها إلى أين تتجه مسيرتها التالية، وفي أي مدرجات ستتردد أصداء أحلامها.

تملّكني شعور بالفقد وها أنا أعبر عتبة الباب إلى المنزل.

جاءت أمي تركض لتعانقني، تملأ الجو بكلمات التبريك والفرح.

حاولت أن أبادلها ذات الفرح، ولكن في عيني كان هناك بريق خافت لحكاية لم أجرؤ على كتابة فصلها الأخير، لم اسألها في ذلك اليوم:

"ماسا، إلى أين؟"

الحلقة الثالثة:

عودة الأمل

في قلب الليل الأزرق، حيث السكون يتنفس عمقًا ويترك العالم خلفه، أجد نفسي وحيدًا، مستندًا على زجاج النافذة البارد.

يتراقص ضوء القمر على وجهي، يعانقها نظرتي المتعبة، وتسبح أفكاري في محيط الشجن نحو ماسا، قلبي الغارق في حيرة لذيذة بينما السؤال يطوف حولي كفراشة الليل: "هل يعقل أنني لن أرها بعد؟"

لم يكن الأمر عجزًا عن الإقدام فحسب، بل تمنيت بأمل ألآتم أن أخوض حديثاً عميقاً معها، أن تعرف اسمي، وأحكي لها عن أحلامي، وربما أسمع منها ضحكة صافية كماء النبع.

أتساءل بألم مكتوم: "كيف أحبها وهي لا

تعرف عني شيئًا؟" الحب أرقى وأعز،

كيف يعتريني؟

ابتسامة بسيطة منها شعرت بأنها تفتح للتو أبواب

السماء، لكنها ليست كافية.

الآن، بعد أن مرت الفصول الأخيرة من الدراسة

خلف ستائر الزمن، وتبددت أيام المدرسة

كدخان قطار يختفي في الأفق، حيث

كانت الفرصة الوحيدة لرؤية ماسا، أجد

نفسي أتأمل القدر وأبحث في ثنايا روحي عن

مخرج.

"يا إلهي، أبكي لأن الحنين عجز عن تكوين جسر بيننا، وضاعت مني الأوقات الثمينة."

تمتلئ غرفتي بشعور الوحدة، صديق لا يفارقني، بينما رفاق الزمن يحثونني عبر رسائلهم المتكررة للانضمام إلى لياليهم المبهجة وأنا أختار العزلة، أعزف عن الخروج معهم فأبدو كسرًا في قوقعة، وحيد أبي وأمي، بلا إخوة يشاركونني الضحكات والذكريات.

يغزوني السؤال، "هل هي الوحدة التي تنسج حولي ستار الانعزال، أم قدر اخترت أن أرضع من كأسه؟"

في عمق تفكيري، يخترق صوت الأذان ظلمة الليل بنوره الروحاني، يوقظ أعماقي، يدعوني لأستجيب لندائه.

أخرج من غمرة الحزن، مسحت دمعة تائهة بطرف كمي، وتوجهت نحو الصلاة، حيث يعود القلب إلى ميناء الأمان ويرسو على شاطئ السماء.

في صلاتي، أرفع يدي بدعاء بليغ: "أجعل ماسا من نصيبي..."،

وأنا أعتقد أنه لا داعي للاسترسال في التوضيح لأن رغبات القلب قد تجلت بالدعاء الصامت، دعاء يعرفه من في السماء ويشهد عليه ليلي الرفيق.

ماسا، تلك الألغاز المتناثرة في فضاء قلبي،

من هي ترى؟ وما قصتها؟

وكيف بدأ هذا الحب الذي يحتلني؟

سأنتقل بكم إلى عالمها.

ففي نهاية العام الدراسي ومع بداية

حضوري للمعهد الذي لطالما شكل عالماً

جديداً بالقرب من منزلي، حيث انبثقت

ماسا كنجمة في مجرة حياتي.

ولو عاد بي الزمن، لتمنيت أن ألتحق بالمعهد

منذ سالف الدهر، لكن هل يجدي الندم

الآن؟

النوم يأتي متثاقلاً، نعم، لكن يحمل في أحلامه بذرة أمل أزرعها على عتبة كل شروق جديد، قدرًا مكتوبًا بين النجوم، دعاءً قد يلامس قدر ماسا ويلتقيان في صورة حكاية يُلهم بها العشاق. تغمض عيناي بهدوء، وأنا مستسلم لحضن الفراش بعد صلاة الفجر، حيث الأفكار تدور في رحى الأمنيات.

في أحلامي، أرى ماسا كظل حالم يمر عبر ضباب الواقع، كأنها قصيدة لم يتم كتابتها بعد، ترقرق في أعماقي كنبع ماء لمسته شفاه الشمس.

وبين تلك الحلمة الساكنة في اللاوعي والواقع الذي يحاكي السكون، تأتي أصداء اليوم الجديد .

تشق أشعة الشمس مكانها عبر ستائر الغرفة، معلنةً بداية فصل جديد في قصة حياتي.

هناك صراع مستمر بين قلبي وعقلي؛ يحاول العقل تذكيري بأن الحياة تستمر وأنه يجب علي الاستمرار، بينما يتشبث قلبي بتلك اللحظات القصيرة التي أضاءتها ماسا، على الرغم من أنها قد تكون حلمًا بعيد المنال.

أزيل الأغطية عني شيئاً فشيئاً وأجلس على حافة السرير، في داخلي نوع من الحنين، تساؤلات بلا عدد تراودني، "هل سيأتي يوم نلتقي فيه مجددا ؟" الله وحده يعلم، ولكن الإيمان العميق بالقدر يرشدني لمواصلة السير.

عندما فُتحت شاشة هاتفي، كان الهدف مجرد هروب.

أردت أن أغرق في بحر الإنترنت حيث يمكن غض النظر قليلاً عن واقعي.

قلبتُ في صفحات الأخبار السريعة، فيديوهات تتهادى وصور لمشاهير يعيشون في عوالمهم، أصوات ضحكاتهم تبدو خفيفة وبراقة كما النجوم في سماء صافية.

لكن نجومي كانت تغيب، في واقعي الذي

يعتصره الشجن والحيرة.

كنت في كل ليلة أتوه بين النجوم البعيدة، أبحثُ

عن نجمةٍ مفقودة في سمائي الخاصة.

وفي غفلة مني، وسط تيار المحتوى الذي لا يتوقف،

فاجأتني صورة.

يا إلهي، إنها ماسا! لم تخطر لي فكرة البحث

عنها عبر هذا العالم الرقمي قبل الآن.

ليتني فكرت في هذا سابقاً، يا لغبائي الذي لا

يُطاق!

اهتزت يدي وكأنما فقدت كل قوتها، وانزلق

الهاتف من بين أصابعي ليهوي نحو الأرض كريشة

ثقيلة.

لقد أيقنت فجأة أن أمامي فرصة، ربما تكون سبيلي للكشف عن عوالـم ماسا السرية التي لـم أتمكن من استكشافها من قبل.

كانت صفحتها خاصة، مُغلقة ببوابة رقمية، لكن كانت لدي الرغبة العارمة في أن أطلع على حياتها .

هل من المناسب أن أتبع صفحتها؟ هل ستقبل طلبي؟ أفكار متضاربة بدأت تتصارع في ذهني.

للمرة الأولى، شعرت برغبة عميقة في طلب المشورة من أحدهـم .

كنت بحاجة لصديق يُخرجني من هذه الدوامة المؤرقة.

عمار، صديقي الذي لطالما شاركتُه متاهاتي ولحظاتي الضائعة.

كان عمار ذو بصيرة نافذة، يجد لكل مشكلة حلاً ولكل حيرة كلمة.

"نعم، عمار، هو الشخص المناسب.

سأشاركه كل شيء، سأروي له عن ماسا والابتسامة التي ألفتها على طريقي دون غيري... عن ليالي التفكير بلا نهاية وعن حيرتي الآن حيال هذه الصفحة الخاصة التي قد تكسر الجدران بيني وبينها."

ألتقط هاتفي من الأرض، أضع الأفكار المتشابكة جانبًا وأسرع لأرسل رسالة إلى عمار، فقد كان لهذه اللحظة، أكثر من أي وقت مضى، أهمية كبيرة.

كل ثانية تمر كانت تحمل معها إمكانية جديدة، بارقة أمل لقلب صبور.

الحلقة الرابعة:

ظلال الصمت

عمار:

جالس في غرفتي، الضوء الخافت يكاد يلامس أوراق كتابي الذي يسبر أغوار التاريخ، بعد أن نفدت مسلسلاتي وأفلامي، فانزلقتُ إلى عالـم الحروف بحثًا عن تنويع.

أنا عمار،

الروح الاجتماعية تجري في عروقي، عائلتي تملأ فضاء حياتي وصداقاتي تكتب قصص يومياتي.

لدي أخ صغير، هو النقيض لصخبي، قرين لهدوئي.

غارقًا بين السطور، يرن هاتفي.

صوت غائب ظل يختبئ خلف ستار الانشغالات.

لـم يكن لصوتك أن يطرق مسامعي إلا صدفةً، يا عيد.

قلتُ في نفسي بمزيج من الدهشة والسخرية قبل الإجابة.

وعندما أجبت، قال دون مقدمات وكأنه لحظة استعجال تخترق الزمن: "عمار، أريد أن أراك على الفور."

إن لاحوجتي لسؤال؛ حيرة وتساؤلات لم يمهلني لإزاحتها، فأطبق الخط.

يا لك من لغزٍ مُحيّر، لم تستطع حتى أن تدلني على مكان اللقاء!

أعدت الاتصال به، اتفقنا على رؤية بعضنا قرب الحديقة التي بجانب منزلي.

هدأت الأمور لكن عقلي بقي يدور في فلك الاسئلة.

ما الأمر يا تُرى؟ هل حل بك مكروه؟ الأفكار تتزاحم في رأسي كضيوف لم تدعَ إلى مأدبة.

بالكاد انتعلت حذائي، وطرحتُ كنزة الخروج على أكتافي، ناسيًا أن أبلغ والدي بأمر خروجي.

ها قد وقعت في شباك فضولك يا عيد، وزرعت في قلبي القلق.

...

عيد:

كان الهواء باردًا والشوارع شبه خالية عندما خرجت من منزلي متوجهًا للحديقة بجانب بيت عمار، تلك الزاوية الهادئة التي شهدت على كثير من حكاياتنا.

وصلتُ قبل الوقت المحدد، الانتظار أفعالي والتوتر رديف حالتي.

وأنا ألمح صورته المعتادة وهو يقترب، يطفو على وجهه ملامح القلق والاستفهام.

بادرني عمار بالقول عندما اقترب، صوته يحمل خليطًا من القلق والفضول:

"ماذا حدث يا عيد؟ هل تجري وراءك المصائب؟"

ضحكت قليلًا وأنا أتصنع اللامبالاة، " لا تقلق، فقط قصة أريد أن أرويها لك، وأحتاج إلى مشورتك."

عمار متهكمًا: "أتمازحني يا عيد؟ 'لا تقلق'؟ بأي حق تأمرني بعدم القلق وأنت تعرف جيدًا كيف كان اتصالك عبر الهاتف!"

أنا، بمحاولة لتخفيف التوتر، أجبته "ألم تعتد بعد على هذا الأسلوب مني يا عمار؟" مع ضحكة خفيفة.

لكن لاحظت شحوبًا يكسو وجهه وغضبًا يلوح في عينيه.

عمار بصوتٍ عالٍ: "إذًا، ما الذي تريده الآن؟"

تنهدتُ عميقًا وقلت، "هدئ من روعك، سأشرح كل شيء، لكن دعنا نذهب إلى مكان أكثر هدوءًا لنتحدث به."

في المقهى القريب من الحديقة، اخترنا مكانًا منزويًا وجلسنا.

شرعت في الحديث، قلبي يخفق بتردد وأفكاري تتسابق.

أنا: "هناك فتاة، لطالما أثارت اهتمامي.

مرت الأيام في الثانوية دون أن تعرف بوجودي حتى..."

عمار، يقاطعني فجأة: "ومن هي تلك الفتاة؟ دعنا نتحدث بوضوح!"

أنا بتمهل: "اسمعني، دعني أغوص في تفاصيل ما حدث."

وبعد الكثير من الحوار والشرح، كان لسان حالي يقول:

"لقد رأيت صفحتها على الإنترنت وترددت قبل متابعتها.

أشعر بأنني لا يمكنني التقدم دون أن أستشيرك."

سكت عمار طويلًا، تهيأت لسؤاله المتوقع، "ومن هي هذه الفتاة؟"

بحثتُ في عينيه وقلت: "إنها ماسا."

وفي تلك اللحظة ظهر الاستغراب العميق في عيني عمار كما لو كانت له معرفة مسبقة بها، ربما!

سألته بحيرة: "ما بك يا عمار؟ هل فاجأتك القصة بهذا الشكل؟"

بقي صامتًا وهو يحاول استيعاب ما سمع، والحيرة مرسومة على محياه.

الحلقة الخامسة:

لغز ماسا

وفي خفقان القلب والروح مسكونة بصورة محبوبة لم تُلامس إلا أطياف النظر، وقفت بين معضلة قلبي واستفسارات صديقي الصامت عمار.

وبينما ظل عمار مستغرقًا في ملامح الدهشة، أطلق أخيرًا سؤاله الذي طال انتظاره:

"كيف حدث وأن رسمت لها في قلبك مدينة حب دون أن تقترب منها إلا بنظرات خاطفة من بُعد؟"

بصوت خلته رتابة الحيرة، أجبت قائلاً:

"لماذا تسأل العاشق عن سر عشقه؟ دع السؤال لقلبي، علّه يجذب من بحار العشق إجابة.

والروح...

يا عمار! الروح تترنم بحبها ليل نهار."

ثـم اضفت بتوقف محمل بالذهول: "لكن دعني أسألك، لـم أرَ في عينيك دهشة عند ذكر اسمها؟"

حاول عمار أن يرسـم صورة الجهل بالأمر، قائلاً: "لا تثريب عليك، فلا علاقة لي بها."

الشك يتملكني، وعلى الرغـم من ذلك، عدت لموضوعي الأساسي: "النصيحة، ماذا عليّ أن أفعل؟"

ومع ارتباك بادٍ، بدأ عمار يبوح بما يخفيه: "يا عيد، لا بد لك أن تعلـم..."

وإذ بظل الفضول يلف الأجواء، انقطعت خيوط الحديث بمقدم صديقنا سيف بالصدفة، معلناً عن وصوله بتحية متحمسة.

وكأن كل ثانية تباطؤ حتى أصبح الوقت في عيوني لا يعدو كونه جبالاً من الانتظار، إلى أن صُدِمت المحادثة وانقلب تركيزها إلى أمور الجامعة وما يشبهها .

أما عمار، فقد أدرك أخيراً من ملامحي الكئيبة أن الأمر عظيم بالنسبة لي، فقاطع سيف بلباقة ليودعه على عجل، بادعاء موعد آخر ينتظرهما .

وحين هدأت الساحة تحت شرفة الأشجار الجميلة، و انفجرت بسيل الأسئلة:

"بلغني ما لم تستطع قوله! ما الذي يخيفك حيال ماسا ؟"

النبضات كانت تتسارع، والروح كانت تتألم من شدة الفضول.

واقفًا تحت ظلال الأشجار التي كان يفترض
أن تُهدئ من روعي، وجدت نفسي أحادث
عمار بإلحاح: "كن صريحًا معي يا عمار،
فالقلق ينهش أحشائي.
هل من شيء خطير يجب أن أعرفه عن ماسا؟"
بصوت يخفي خلف نبراته وقع القلق، أطلق عمار
كلماته ببطء، معتصمًا بالصمت الذي سبقها:
"لست بحاجة لكل هذا التوتر، لكن...
هناك ما وصل إلى مسامعي في المعهد، أمور لم
تكن واضحة، ولم أكن أعلم بمشاعرك
تجاهها حينئذ."

لم أتمالك نفسي وقاطعته على الفور: "تكلم بسرعة يا عمار، ما الذي سمعته بحقها؟"

عاد عمار في هدوءه المعتاد وقال: "هناك من يقول في المعهد إنها تلعب بمشاعر الشبان وتتلاعب بهم.. ومن ثم تدير ظهرها لهم. وهناك من يتهمها بأنها تعاني من مرض نفسي...

لا أستطيع أن أقسم بصحة هذه الأقاويل، لكن أردت فقط أن تعلم."

وجهي كان مليئًا بالذهول وبادرت بالرد: "هذا مستحيل! أول مرة رأيتها، لم تكن لها أي علاقات تُذكر مع الشبان.. والمرض النفسي؟ تلك أقاويل لا تمت للواقع بصلة، كلنا نواجه تحديات نفسية، لا يجب تصديق كل ما يُقال!"

عمار، محاولًا تهدئة الأمور، قاطع بلطف: "أنا فقط أنقل إليك ما وصلني...

ليس من الضروري أن يكون صحيحًا، ولكن عليك أن تكون حذرًا فقط."

الحيرة بدأت تسيطر علي، سألته: "وماذا عن

حسابها؟ هل يجب أن أتابعها؟"

"لا تفعل شيئًا الآن، ما من داعٍ للمتابعة..." هذا

جواب عمار بهدوء قبل أن يكمل الطريق

بجانبي.

وبعد عودتي إلى المنزل، انبطحت على سريري

افكر في كل كلمة قد سمعتها.

كان ذهني يغوص في التساؤلات وقلبي يرفض

كل تلك الأساطير.

مستحيل أن تكون ماسا الملائكية كما

تصور الناس من خبيث السمعة، فلم أبصر منها

مطلقًا ما قيل.

فتحت هاتفي اتصف صفحتها، المح صورتها و اهمس في سري مع ابتسامة خفيفة تطل من بين دهاليز الحب والإيمان: "أحبك جدًا ولا أصدق أي شيء سمعته يا من ملكتِ قلبي."

الحلقة السادسة:

لوعة القمر

عندما أخذت رحلتي الشخصية منحنى غير متوقع، بدأ والداي يرصدان التغيرات التي طرأت على حياتي.

شيئًا فشيئًا، أصبح الحزن لا يفارق ملامحي، ولاحظا كيف أصبحت قلة شهيتي للطعام مصدر قلقهما.

وفي يوم من الأيام، أتت أمي بلطفها المعتاد وسألت بصوت ينضح رقة وحنان: "ما الذي يثقل كاهلك يا عيد؟".

زينت وجهي بابتسامة لا تصل إلى العيون، وأجبتها كما أجيب كل من يسأل:

"أنا بخير، هموم الجامعة فقط".

زفرت بعمق بعد أن انغمرت في حديث عن

تطلعات الوالدين لمستقبلي الأكاديمي،

وأسرعت إلى غرفتي هربًا من تساؤلاتهما التي

لا تنتهي.

بمجرد أن استقررت في عزلتي، أضاء هاتفي

مشيرًا إلى رسائل من أصحابي يخططون

للخروج معًا.

هُناك وسط ترددات قلبي المنهك وعقلي

المشوش، قررت التخلص من قيود الوحدة

والمشاركة في الرحلة، إنه انتصار صغير

على الانطوائية التي ألفتها.

غمرتني المفاجأة بهم عند وصولي، فلست ممن يخرجون كثيرًا.

بين دهشتهم ومرحهم، بدأنا الرحلة مغتنمين كل لحظة.

في هذا السياق، لم يكن وجود عمار - الصديق الحميم - ووليد ويزن إلا دفئًا أسعدني وشجعني على مواصلة هذا التغيير.

وصلنا إلى مكان التجمع، حيث كان البعض منهمكًا بالحديث عن آفاقهم الجامعية المستقبلية.

لكنني لم أكن معهم حقًا؛ فكانت أفكاري معلقة بماسا، الفتاة التي سرقت تفكيري دون أن تشارك حديثًا واحدًا.

وفيما كنت أبحر مع شرودي، قطعت عليّ أحلام يقظتي صرخة يزن مستفسرًا عن مدى انتباهي.

"لقد فاتك الكثير!" هكذا لخص لي يزن اللحظات التي غبت عنها بعيدًا بتفكيري.

بينما كنا نسير بالحديث، أتى دوري لأناقش خططي، وبلا تردد وافقت على اقتراح الدراسة معاً في نفس الجامعة، على أمل أن تتغير معها ديناميكيات حياتنا.

لحظات من الضحك والمداعبة جاءت حين ذكر عمار مازحًا تلك الفتاة التي طالما شغلت تفكيري وسأل: "وماذا عنها؟" فأجبت بابتسامة تحمل ألف معنى وسط نظرات الاستغراب من وليد ويزن.

وعندما أثار وليد فضوله عما أقصد، صدرت مني الكلمات "قصة طويلة لا يتسع الوقت لسردها الآن، لكن حتمًا سنتحدث عنها لاحقًا"، بهذه الكلمات صرفت النظر عن تساؤلاتهم المتزايدة بابتسامة مطمئنة.

وفهم أصدقائي ذلك ووعدتهم بأننا سنخصص وقتًا لتلك القصة في المستقبل القريب، لنواصل مشوار صداقتنا المفعم بالوعود والتحديات الجديدة.

انتهاء النزهة كان بمثابة استرجاع للواقع الذي لاهوب للوحدة، حيث تلاقت الوداعات معانقة للذكريات اللطيفة التي خُلقت خلال ساعاتٍ معدودة من الفرح المشترك.

انفض الجمع، وكل من أصدقائي ارتحل نحو وجهته داخل الليل الذي سكب سكونه فوق المدينة.

عدت إلى المعترك الذي أعرفه جيدًا.. حياتي العادية، معزولًا، حيث الأفكار تجاورني، ويصبح الصمت رفيق دربي.

تلك الحياة التي غالبًا ما تدور حول مصالح وهموم ذاتية، وكأنها لعبة شطرنج ضخمة نحاول فيها كل يوم أن نحمي ملوكنا الخفية دون أن نعرف حقًا لماذا.

قدّت خطاي إلى نافذة غرفتي، حيث القمر يبدو كمنارة تحدق في بحرٍ من الظلمة، يبعث النور ولكنه لا يبدد السواد.

وقفت هناك، أعيد النظر في سماء الليل، والأفكار تتهادى في ذهني.

"لو أن ماسا تعلم ما يجري بداخلي، هل ستفكر بمثل ما أفكر؟ هل ستشعر بذرات العاطفة التي تخالط نبضي؟"

في هدوء الليل وخفقان القلب، تمنيت لو أن بوسع القمر حمل رسائل قلبي إليها، لو أن النجوم كانت ساعية بيننا تُخبرها بكل ما لا استطيع نطقه. "ليتها تعلم..."

خفقت تلك الكلمات داخلي، وتلاشى صداها في صمت الليل الرهيب.

بينما كنت أراقب القمر، تاركًا لهمومي تتلاشى مع بريقه الباهت، كان حزني يتشارك السماء مع خيوط النور الفضي. خيوط ضوئية تخترق ظلمة الغرفة مكونة أشكالاً متماوجة على الجدار، وكأنها رسائل خفية يرسلها القمر لمواساتي. غمرتني أفكاري الأنينة حتى قطعت سكون الليالي همسة غريبة تنبعث من الظلال الراكدة خلفي.

اختلط شعور الحزن الذي كان يكتنفني بنبرة خوف حشرجت من حلقي.

مددت يدي في العتمة بحثًا عن قبسٍ ينقذني من أتون الفزع الذي أحاطني.

مع كل ثانية تمر، أمالت رأسي نحو الخلف بحذر شديد، متلفيًا السواد الذي بدا كبحر متلاطم.

كان باب الغرفة مواربًا، إرهاصات لا وجود لها تعبّر من الفتحة.

توقف كل شيء...

الزمان... الفضاء... دقات قلبي...

لم يعد هناك سوى الصمت ونظراتي التائهة التي سكنتْ أخيرًا على خزانتي.

وفي ذلك السواد، تلوح شيء يضاهي بريق القمر في مرارته.

جسد بلا ملامح، لكنه مليء بالحكايات المكتومة، تطفو عينان لا تظهر لهما ملامح على بحر من الدمع الجامد.

ما رأيته لم يكن ظلاً أو وهمًا، بل جسد حاضر أنا وحدي لا أراه، جسد يكمن في قلب الذكريات التي يحتضنها الظلام.

تسمرت في مكاني، وقد أضاعت حواسي مداركها بين الحقيقة والخيال، فأصبح القمر الشاهد الوحيد على حالة الفوضى التي غزت روحي.

الحلقة السابعة:

رسالة من حيث لا أعلم

مع تسارع دقات قلبي، والنية المصممة لاكتشاف مصدر الهمسة وضوء القمر الذي يبدو أنه يلعب بأطيافه على جدراني، وجدت نفسي أتقدم نحو الخزانة.

تحت تأثير المزيج الغريب من الفضول والرهبة، تلاشت ملامح الحذر من تصرفاتي.

لم أكد أمسك بمقبض الخزانة حتى غمرتني موجة من الدوار الشديد، وقد باغتتني تمامًا، فشعرت بجسدي يفقد توازنه، وأنا أسقط أرضًا كأن الوقت قد توقف من حولي وفقدت الإحساس بكل شيء.

في غمرة ثقل الظلام الذي أحاط بي، استسلمت لغطاء من اللاوعي، وبدأت رحلة داخل عالـم الأحلام الغامض.

كنت في مكان لا يشبه محيطي؛ كانت هناك فتاة ترتدي ثوبًا أبيض ناصعًا، تطفو بخفة بين أرجاء الغرفة، وجهها مخفي عن أنظاري.

كلما حاولت النظر بشكل أقوى، كلما بدا أن الوهـم يعمق نفسه.

اتجه نظري نحو الأسفل حيث لمحت اسنانًا متناثرة، كأنها بقايا أحاديث تكسرت وسقطت بين دهاليز الأحلام.

على الجانب الآخر، كانت ساعة قديمة ملقاة على الأرض، عقاربها متوقفة تمامًا كأن الزمن في هذا المكان متجمد، مخلفًا واقعًا قائمًا بذاته خارج حدود المعقول.

غلفت الساكنة الغريبة كل شيء في هذا الحلم، وبعد لحظات ساد الهدوء المكان وأحسست بأن ثمة شيئًا يقترب مني بلطف.

نظرت الفتاة باتجاهي، أو هكذا شعرت، رغم أنني لم أستطع رؤية عينيها.

وقفت أمامي في صمت، كأنها تحاول قول شيء مهم ولكن دون صوت.

وفي لمح البصر، بدأت الحواس تعود إليّ ببطء، وتلاشى وجه الفتاة الغامض كما تتلاشى الظلال.

استعدت وعيي، وأنا مستلقٍ على الأرض بالقرب من الخزانة، وبدا كل شيء كما هو في غرفتي، لكن بشعورٍ متجدد بالرهبة والحيرة مما يحمله اللاوعي من أسرار.

الأفكار تدور في رأسي كأوراق خريف تتطاير في ريح عاتية، لا مفر من التساؤلات التي تحاصرني.

تملكني شعور سريع بنوستالجيا الماضي القريب كلما غرقت في تأمل الظلال المتراقصة على جدران غرفتي.

"ماسا"، هذا الاسم يضرب أوتار قلبي كلحن مألوف ومحبوب، كأنها النبض الخفي الذي يعرفه القلب وإن لم تُرَ العين صاحبته.

هي الشخصية التي ملأت الفراغات في حلمي، التي عشقتها بكل جوارحي، وأيقنت أنها "هي" وإن كان وجهها بقي طي الغموض.

فُجِعت الكلمات في حلقي واستبدلت برجفة تموج في كياني، الغصات تعترض طريق السكون، فيما أنا أصارع لجمع أنفاسي المتلاحقة.

بات الحلم يكتنف حياتي بشكله اللامعقول، كلغزٍ يقاوم الحل.

تتشبث نظراتي بالخزانة، ذاك الصندوق الصامت الذي شهد على لحظة انفصالي عن الوعي.

السؤال يتوقد في ذهني ولا يخبو: هل الظل الأسود الذي رأيت كان عرّاب إغمائي؟

أستنهض بصعوبة، كل حركة تمر كأن بها ثقل الدنيا، أنضد جسدي المسترخي وأحاول النهوض، وأطوف بنظري في الغرفة، مؤكدًا لنفسي خلوها من أي روح سوى روحي.

تسلل عدم الراحة إلى جسدي كظل ثقيل يكتنفني، لكن لا مجال للخضوع لبحر الشكوك والمخاوف.

هناك قوة خفية تدفعني للعمل والتحرك رغم الرهبة التي تسيطر على مشاعري.

ببطء، استعيد قوتي الذهنية والجسدية، وأرفع نفسي عن الأرضية الباردة التي احتضنت جسدي المتعب.

وأنا أقف هناك، محتارًا، بين جدران غرفتي التي
عادت لتحيطني، يبرز انعكاس ضوء القمر على وجه
الخزانة، وهو يلقي بوميضه الفضي على الغبار الذي
كوّن بهالات فضية تحلق في الهواء.

كل جزء من هذا المشهد يعزز إحساسي بأن هناك
أسرار مدفونة في هذه الزوايا الصامتة، تنتظر من
يكشفها.

تمتد يدي مرة أخرى نحو مقبض الخزانة، عازمًا هذه
المرة على مواجهة ما يمكن أن يحدث.

أدور المقبض بهدوء ولكن بحزم، وقلبي يجلجل
بالتوقعات والتخمينات.

بعد ثانية تبدو كأطول الساعات، تفتح الخزانة
لتكشف الضوء الذي كان خافتاً من داخلها.

تتساقط أشياء صغيرة وأوراق متناثرة من داخل الخزانة، وكأنها كانت تخفي في جوفها حياة أخرى كاملة.

أمسك بإحدى الورقات المتساقطة، أتأملها وأتحسس خطوطها وأطياف الكتابات الباهتة التي تزينها.

وقد رأيت بضع كلمات تقفز إلى عيناي:

"الحقيقة" و "اليقظة" و "ماسا".

فجأة، أشعر بتواصل بين ما رأيته في حلمي وما أراه الآن، كأن الأحلام والواقع قد تشابكا للحظة.

أحلم أنا بماسا، أو أن ماسا هي التي تحلم بي؟

كان هذا السؤال يدور في ذهني مثل دوامة لا تجد لنفسها نهاية.

أجلس على الأرض، غارقًا في التفكير والتأمل، وأنا أتطلع إلى تلك الورقة.

من أين اتت!

هل أجد فيها إجابات، أم أنها مجرد فصل آخر في سلسلة الألغاز التي تركتها "ماسا" خلفها؟

ماسا:

أنا "ماسا"، لطالما عشت على هامش القصة، بعيدًا عن أضواء الصفحات الأولى، لكن ها هو الوقت قد جاء لأن أشارككم جزءًا من عالمي.

أول ما يجب أن تعرفوه عني هو أن الجدران الأربعة لمنزلنا لم تكن يومًا ملجأً دافئًا بالنسبة لي.

هناك حساسيات، ربما تافهة أحيانًا، تجعل الجلوس قرب العائلة يشبه محاولة تلوين الظلال، فتجدني غالبًا أتجول خارجًا، حيث أستطيع أن أتنفس بحرية وأكون نفسي دون قيود.

لدي الكثير من الأصدقاء، منهم القريبون إلى قلبي ومنهم من هم مجرد معارف، فسحر الصداقة كان يتيح لي ملجأً من نوع آخر، ملجأً اجتماعيًا حيث الضحك يطلق العنان لروحي والذكريات تُبنى بكلمة وموقف.

أما الآن، بعد أن ودّعت أروقة المدرسة حديثًا، أجد نفسي عند منعطف جديد.

المرحلة قد اكتملت، والصفحة قد طُويت، وحلم الجامعة يطرق الأبواب بلهفة وترقب.

شعور غريب هو؛ حيث التخرج يشبه نقطة تحول، يكاد الحبر يجف عنها ليعلن بداية فصل جديد في قصتي.

لكنني ورغم هذا الانتقال، أظل مشغولة الذهن بما ينتظرني.

ماذا ستحمل الجامعة لشخصية مثلي؟ هل سأجد فيها نفس الحرية التي كانت تسعفني بالهواء النقي عندما كنت أشعر بالاختناق؟

لدي طموحات وأحلام، كبيرة كالسماء، متنوعة كألوان الطيف التي تختبئ بين قطرات المطر، وأشعر بثقل المسؤولية يكبر على كتفي كما ينمو الشجر تدريجيًا.

الجامعة بالنسبة لي هي فرصة للتعلّم، لكنها فرصة أيضًا لتشكيل مستقبلي وصقل شخصيتي أكثر فأكثر.

بينما تنساب الأيام، أمضي بهدوء، اراقب عقارب الساعة وهي تعلن قرب الرحلة القادمة.

مع كل ضوء شمس جديد، أرمي حلمًا في سلة المستقبل، وأتأمل أي نوع من التغيير ستجلبه الأيام، وكيف ستتشكل حكايتي مع الصفحات القادمة.

ها أنا ذا، أعد العدة للانطلاق، لأختبر وأودع وأبدأ من جديد، وكلي أمل أن الغد سيكون صديقي، أن يمنحني أجوبة، ربما, لأسئلة لم أطرحها بعد.

في الانتظار، أبقى، كائنًا متفائلًا، واثقًا بقوة البدايات وسحر الاحتمالات.

الحلقة الثامنة:

من أين أتت!

عيد:

كانت السماء تعانق نقاء الظهيرة في يوم خميس، حين دارت عقارب الساعة نحو الثانية بعد الزوال.

تحت وطأة عبء الفكر وحاجة المشاركة، بادرت بالاتصال بعمار، صديقي القديم ورفيق الروح.

"هل لديك أي انشغال اليوم؟" سألته بهدوء.

"لا، فارغ تمامًا في الوقت الراهن"، جاءني رده مباشرًا وخاليًا من التردد.

"هل يمكن أن نلتقي؟ هناك ما أودّ أن أفصح عنه لك"، عبّرت عن رغبتي، مخفيًا وراء نبرتي غموض الأمور.

"أهو أمر خطير يا ترى؟" سأل عمار، فانتابه القلق.

"لا أعرف إن كان خطيرًا، ولكن... يحتم علي أن أقوله لك. لا يمكنني تحمّل وطأة التفكير به وحدي". الكلمات خرجت متثاقلة، تلونت بشيء من الضياع.

"إذن لنلتقي حيث تفتح الأشجار أغصانها للسماء، عند الحديقة المقابلة لمنزلي"، قالها عمار، وكأنه يقرأ أفكاري.

بمجرد وصولي، كان عمار هناك ينتظر كعادته، حاملاً برودة الصبر ونظرة الفهم.

لم نتريث كثيرًا حتى انسكبت القصة من بين شفتيّ كموج عابر؛ أخبرته عن ذهابي للخزانة التي أوقفت دقات القلب. ولكنه لم يكن عمق الخزانة ما أثار الهول، بل ذلك الطيف الأسود، الشخص بلا ملامح، واقفاً هناك، ينعكس على باب الخزانة كظلال الأسرار.

"وماذا حدث بعد ملاقاة الطيف؟" استرق السؤال من بين شفاه عمار بلهفة الباحث عن الحقيقة.

"زلت قدمي، وتاه وعيي، وعندما عدت إلى وعيي وجدت تلك الورقة"، كنت أتكلم بأنفاس مقطوعة، كمن يسرد حلماً مختلطاً بالحقيقة.

"ورقة؟" أعاد السؤال وهو يمحو جبينه بيده في حيرة.

"نعم، 'الحقيقة واليقظة وماسا' "، كانت كلمات الورقة لغزاً في حد ذاتها.

عمار ظل صامتاً، مستغرقًا في دوامة تفكيره.

الصمت الذي خيّم على الجو كان كافيًا ليُخرس جرس العصافير.

كانت هناك لحظة، استمرت دقيقتين بالضبط، لم يكسرها سوى أنفاسنا الحذرة.

ثم، وبلهجةٍ يُخالطها الجدية والاقتناع، قال عمار: " تعال معي إلى منزلي للقليل من الوقت."

تفاجأتُ من طلبه، كان من غير العادة أن يقوم عمار بمثل هذا الطلب دون شرحٍ سابق.

رغم ذلك، وبدافع الثقة التي كنتها له، نهضتُ برفقته، مغادرين الحديقة إلى منزله الواقع بالقرب منها .

الممرات كانت تخفي خطاها تحت الأغصان المائلة والأزهار الذابلة.

وصلنا العتبة، فدلفنا إلى داخله، حيث يستقر الزمان المعبّأ بالذكريات.

جلستُ هناك، في غرفة عمار التي كانت تشع بأجواءٍ من صامتة، وقد غاب عمار لدقيقتين، تاركًا الغموض يكتسح الجو.

شعرتُ بقلبي يتسارع بينما أحملق في باب الغرفة المفتوح جزئياً، في انتظار عودته.

لـم يطُل انتظاري حتى عاد إليّ، وبدا على وجهه تعابير متوترة. "ماذا يوجد لديك؟" بدأت أشعر بالتوتر يعتصرني، فحدسي لـم يعرف خطأً بعد .

"بسرعة، هل تلك الورقة التي رأيتها بالخزانة معك؟" سألني عمار دون مقدمات.

"أجل، أتيت بها لكي أريك إياها"، أجبته، بينما أُخرج الورقة من جيبي.

"أعطِني إياها بسرعة"، طلبها مني بلهفة غريبة، وكأن الوقت يُسابقه.

مددت يدي، وقدمت له الورقة.

فتحها وبدأ يتأملها بعمق، راسماً تعابير الجدية على وجهه. كانت كلمات "الحقيقة واليقظة وماسا" تبدو كألغاز متناثرة تترقب كلمة السر التي تجمعها.

وبعد وقت غير قصير، وضع الورقة على الطاولة ومضى نحو الدولاب.

كنت أتابعه بنظراتي المشدودة، أدرك أن هناك عتاداً آخر ينتظر تمثله على مسرح الغموض هذا.

رأيته يخرج شيئاً لم تتضح معالمه بعد.

أغلق الدولاب وعاد إليّ، ممسكاً ورقة بيده.

"افتحها واقرأ"، قالها بصوت هادئ معتّم بمخاوف خفية.

تسللت يدي إلى الورقة، تلك الرسولة الغامضة التي حملت أسراراً لم تزل كامنة بين ثناياها.

وبكل لهفة تحملها الأرواح عند مفترق الأقدار، بدأت أفتحها.

طيّات الورقة تمتدّ، تفصح عن مضمونها، كاشفةً ما فيها من رسائل تنبئ بغد لم أكن لأتخيَّله.

وإذ الكلمات تقفز إلى عيني، وكأنها تحمل معها وزن التاريخ وغموض الزمان، طُبعت الصدمة على محيَّاي. "يا إلهي..."، شيء يحبس الأنفاس، كلمات تسرق النطق من شفتي، تاركةً وجهي صفحة بيضاء تعكس ذهول الروح وارتباك العقل.

الحلقة التاسعة:

بلا ملامح

ماسا:

فتحت أبواب القدر ليوم جديد يفوح بعطر الأصالة، وفي رحم الفجر الدافئ تستيقظ أشواقي لرفقةٍ لطالما تغنت بها الروح.

مع آذان الصباح الأولى، تناغم صدى ضحكاتنا مع صوت الفناجين التي تستقبل القهوة بكل شغف.

"رغد" بلهفة النسمات الصباحية: "دائمًا ما كنت أؤمن بأن الصباح هو الوحي الذي يُلهمنا الحياة."

"روان" وهي تضم كتابها إلى صدرها: "وأنا كلما فتحت صفحة جديدة أشعر بأن كل يوم هو بداية قصة يجب أن نرويها."

كان لنا موعد مع الضحك والهمس تحت سقف المقهى الذي يحكي قصة كل من مر من هنا.

نتبادل نظرات تختصر الكلام وتأخذ بأيدينا نحو ألف قصة وقصة.

"هلا تخيلتي يومًا أن نسج الذكريات يمكن أن يكون بهذا الجمال؟"

تقول رغد، وهي ترقب اللحظة وكأنها تلتقط الزمن بعينيها.

"وكيف لا، وكل لقاء بيننا هو خيط ذهبي يُضفي على الحياة بريقها الخاص" أرد بحماس يظاهي جمال الصباح.

استرقت الأسواق نظراتنا وتحولت معها أحاديثنا إلى مزاد عذب؛ نبيع فيه ضحكاتنا بأبخس الأثمان ونشتري منه ذكريات لا تقدر بثمن.

"ترى هل سيبقى هذا العقد جميلاً كهذه اللحظة؟" سألت روان، وهي تُداعب قلادة عرضت في عنق الزمن.

"بل سيصبح أجمل كلما صاغته ذاكرتنا بحب" أنا وأنعش القلادة بلمسة دافئة من أصابع التفاؤل.

وكما النهر يجد طريقه بين الوديان، نحن نجد طريقنا في

حكايا الأماكن والوجوه، إلى أن يحين موعد الوداع،

حيث الأحرف تقف عاجزة عن وداع مسكون بالوعود.

نفترق على أمل لقاءٍ موعود تلتحم فيه القلوب مرة أخرى

في خضم هذا العالم المترامي، فكل حديقة من

الكلمات التي زرعناها اليوم، ستُزهر في لقائنا القادم،

وتتفتق عن ألف حكا.

كانت الشمس تصافح الأفق البعيد وداعًا مع حلول الظلام المبكر، وأنا أسير في طريق العودة إلى المنزل، محملةً بكنوز الذكريات من يومٍ مضى.

في شرودي اللذيذ، لفت انتباهي طيف من الماضي، كشبح من الوجود يمرّ خلسةً في مشهد الحياة السريع.

وجهٌ مألوف يتراءى من بين الزحام، يحمل معه قصصًا قديمة لم تعد تلامس هدوء روحي.

تمضي نظراتي مرور الكرام دون التصاق، كما تمضي السحابة العابرة بلا أثر.

وأكملت خطواتي، عميقة في تأملاتي، نحو تلك الأسوار التي تحيط بها سكينة المنزل، ولكن...

أسوار تبدو كمقبرة هي سكني، مساحة حيث تُدفن الأفراح وتُخزن الكآبة.

منزلي، الذي يفترض أن يكون ملاذًا، أراه في لحظات صمتي إلى صدى للفراغ الذي يملأ أركانه.

ردهة تصدح بأصداء أفكاري، وغرف تحتضن أثقال وحدتي، وكل زاوية فيه تُشبه رفوفًا تُعرّض فيها بقايا ذكرياتي.

لكن في كل خطوة تؤدي إلى داخله، أحمل رغبة في التحرر من قيود الحزن، وأسعى لإحياء الأمل بين جدرانه المظلمة.

لعلني أزيّن واقعي بصور الأمسيات التي مرت، وأضفي على كل زاوية شيءًا من نور الصداقة التي احتضنتها اليوم.

أحاول أن أجد جمال الوحدة في صمت المساء، وأن أصوغ من السكون لحنًا يرنم مع كل ظل طويل يرسمه القمر على الأرض.

ربما يكون ما أراه الآن مقبرة للأفراح، لكن كما تتحول الأرض من خصب إلى يباس، فقد يومًا ما، تتحول هذه الجدران إلى شهادة حياة جديدة، مع كل صباح يتنفس الأمل.

عيد:

ترددت أصداء قلبي بين جدران الغرفة الملبدة بالأسرار، وأنا أتأمل الورقة الغامضة بين يدي.

تحدثت الأرقام والتواريخ بصمتٍ يزلزل الروح، وكل دقيقة تمر تضفي على اللغز طبقة جديدة من التعقيد.

"1:17"، "26/11"، "يوم الأحد"،

وتلك الجملة التي تركت الأسئلة تسابق نبضاتي "انتظر بفارغ الصبر".

أنظر إلى عمار وكأن الحيرة تعلو نظراته كما تعلو الموجة البحر.

كم شعور مشترك قد سكننا في لحظة واحدة، وكم من المفاجآت تخبئها الأحلام وحنايا الروح؟ الذاكرة تتشابك مع خيوط الواقع عندما تذكرت ذلك الحلم المريب،أسنان متناثرة، وساعة متوقفة تعقبها دوماً عاصفة من الرهبة.

تلفني الصدمة لرؤية عمار وقد غمرت وجهه علامات الخوف.

"الأسنان في الحلم تنذر بالمصائب، وأحيانًا بالموت" هكذا قال بصوت متردد وكأن الخبر شاحذ حزن يشطر الألق.

كبرقة الكهرباء التي تخترق الليل، شعرت بنفضة تعلو كل خلية في جسدي.

كلمة "موت" ليست إلا زوارق تائهة بين عباب الخوف والدهشة.

جُل ما يمكن حمله في لحظة التوجس هو تلك الأجهزة التي تمنحنا إجابات رقمية وكأنها مؤشرات الحياة.

كانت فراستي تهمس بأن الورقة لا تخص "ماسا" وذلك الاعتراف جعل عمار يتفتح بابتسامة من وسط ظلمة الحيرة.

كم هو غريب أن يمزج القدر بين الخوف والضحك، بين الهشاشة ولحظات الراحة القصيرة.

الطريق إلى المنزل كان طويلًا بما يكفي لكي تتسلق الأعصاب إلى ذروة التوتر.

رغم ثقة الخطوات على الأرض، كانت قلوبنا تخفق فوق السحاب بحثًا عن ملاذ الأمان.

أمامي الآن الورقتين، شفرة وجودي ولعنة

فكري.

أتمعن فيهما . . . أتأملهما . . . والفكر يبحر في

بحر من الاحتمالات، كل طريق فكري هو

مزيج من الغموض والإدراك، وقلب متعب يقاوم

أمواج القدر بشجاعة المستكشف.

غرقت في أفكاري، أعيد ترتيب الأحداث في رأسي وكأنها قطع شطرنج تنتظر الخطوة القادمة.

تهالكت على السرير وغلبني النوم، وكأن للعقل حقه في الراحة مهما كانت الأفكار تتجاهل هذا الواقع.

الوقت كان كالسراب؛ يمر متثاقلاً حيناً وسريعاً كالبرق أحياناً أخرى، وشعرت بأن ثواني النوم لم تزد عن دقائق عندما أشرقت الشمس معلنة بداية يوم جديد.

استيقظت متجاوزًا ثقل الليلة الماضية، ومشيت نحو النافذة لتحية الصباح.

النور غمر الغرفة، والشوارع على قيد الحياة تحتضن يوماً جديداً.

نظرت إلى الورقتين، أنا في لغز لـم يكتمل بعد، طويتهما بحرص واحتويتهم في محفظتي ككنز ينتظر فك رموزه.

بعد الاتصال القصير مع عمار وعدم موافقته للخروج إلى السوق، قررت أن أواصل رحلة البحث وحدي.

لعل الكتابة ستكون الملاذ الذي يخبئ الإجابات، أو على الأقل ستمنح العقل بعض الراحة من الأسئلة.

داخل السوق، كان الزحام يضرب بأمواجه الناس الذين اختاروا الضجيج الصباحي.

لكن فكرة العودة بكتب جديدة كانت تستحق التحدي.

في الأعماق داخل المكتبة، لـم أشعر بالوقت يتسرب من بين أصابعي؛ كنت غارقًا في بحر الكلمات وسحر العناوين التي تتراقص أمام عيني.

"بلا ملامح"، لقد ألهب العنوان فضولي.

هل من الممكن أن يحتوي على إشارات تتعدى حدود الصدف؟ الطيف الأسود كان بلا ملامح أيضًا، وجه بلا تفاصيل، سر بلا إجابات.

لم أتردد في إضافته إلى مكتبتي الشخصية بأمل أن يكون بوابة لفهم ما يحدث حولي.

الصفحات أدارت عقارب الساعة بعيدًا عن إدراكي وأنا أتصفح وأبحث، أفتش عن أفكار جديدة وإلهام غير متوقع.

كانت الورقتين تنتظران خلف الأفق المكتظ بالحروف، و"بلا ملامح" صار شعلة أتقد بها رغم أنني لم أفتحه بعد. وجوده بين يدي كان يشعرني بثقل التوقعات؛ لربما كان مفتاح لغز الطيف أو مجرد صدى لأحلامي الغامضة.

عندما خرجت من المكتبة، بدا كما لو أن الزمن قفز قفزاته الهائلة دون أن يستأذنني.

الشمس كانت قد بدأت تلوح بالوداع، والظلال تملأ الأرجاء كنغم هادئ يسبق موسيقى الليل.

لم يتبق من النور سوى خيوط قليلة تحاول مد جسورها فوق العمارات والشوارع.

لـم تفوّتني الفكـرة المتسللة، أن الوقت الذي أمضيته بين عالـم الكتب كان بمثابة عكس لرحلتي في البحث عن إجابات؛ يطلب الأمر صبرًا واستغراقًا في التفاصيل.

الطيف الذي بلا ملامح يحتاج إلى ذات الإصرار.

المشي إلى البيت كان تحت ظلال متغيرة.

الليل يسرق مكانه ببطء من النهار كما يسرق الحلـم لحظات من الواقع.

كانت الشوارع تدخل في سكينة المساء، تخلي مكانها لهمسات الليل وأسراره.

وصلت إلى المنزل، الضوء المحتضر اختفى تماماً وراء الأفق.

كتبي الجديدة تنتظر على قائمة القراءة، توقُ ممزوج بنبرة من الحذر يرافقني.

هل من بين هذه الصفحات سأجد المرشد أو النجدة التي أسعى إليها، أم هي مجرد خطوة أخرى في ممرات مليئة بالضباب؟ الجواب يكمن في قراءة ما بين السطور وما وراء الملامح.

الحلقة العاشرة:

جوار القدر

الأيام تتسابق كأحصنة في ميدان الزمن، وأنا هنا، في غرفتي، أتأمل أبواب الجامعة التي ستفتح قريبًا لتطلق جولة جديدة من الحياة.

أفكار الدوام ولقاء الأصدقاء تمتزج مع أفكار أكثر غموضًا تلك التي تحملها الورقتين وسر الحلم الذي لا يغادر أحضان ذاكرتي.

جلست على حافة السرير، نظري يخترق زجاج النافذة ويسافر إلى ما وراء السماء، أبحر في الفضاء اللامتناهي بحثًا عن اليقين.

لا شعوريًا يقودني فضولي إلى محفظتي حيث أخرجت الورقتين، امتزجت نظراتي بتاريخها والساعة المحددة بها، كلمات الحلم تتردد في أذني مع صورة الفتاة المغطاة بالأبيض، وإخفاق قلبي عند ذكر ماسا.

ماذا لو كانت تلك الرؤى إشارات؟

فكرة ما لمعت في ذهني وأطلقت العنان لإرادتي أن أتحرك، توقظ فيّ رغبة قوية بالعمل وعدم الاستسلام للجمود. بسرعة البرق ارتديت ملابسي وأنا أتجه للخروج، قابلتني والدتي بوجهها المليء بالاهتمام.

"ما بك يا عيد؟" لـم أجد ما يدعو للقلق فقلت بابتسامة، "لا شيء يا أمي، سأقابل صديقًا لبعض الوقت." وجهت إليّ عبارات الحب والاهتمام متسائلةً عن الطعام، لكني فضلت الانتظار حتى أعود، ربما عندما أعود لديّ ما هو أكثر إشباعًا من الطعام، ربما جواب يهدئ العقل ويغذي الروح.

بلغتني أخيرًا تلك الأصوات التي لا تحس بالأمان إلا بوجود الآخرين، وأنا أهـم بخطوات متعجلة إلى الحديقة التي تلاصق منزل عمار، مع لمعان الشمس.

رنين الهاتف كان سريعًا وجواب عمار كعادته يأتي بنبرة تعكس قربنا؛ يعرف دومًا أن وراء مكالماتي طلبًا أو مغامرة لا تتوقف.

"يا عمار، أنا في الحديقة القريبة من منزلك. هلا أسرعت إلى هنا؟ هناك شيء ضروري يتوجب عليك معرفته."

جاءني صوته، بعد وقت قصير، يعبر الأثير محملاً بعلامة استفهام معلقة بين الكلمات.

"حسنًا، سأكون عندك بعد لحظات."

انتظرت تحت خيمة من السكون في أحضان الخضرة والأشجار، حتى خرج صاحب الخطى المتثاقلة، البالية من ثقل النوم، ليقف أمامي.

"هل كنت نائمًا حتى الآن؟" سألته بهدوء.

يجيب عمار، وعلى وجهه ظلال النوم الباقية: "نعم، ولكن هاتفي لم يترك لي فرصة للاستمتاع بالقيلولة."

"حسنًا يا صديقي، حان الوقت لكي تترك الوسادة وتستمع إلي"، قلتها وأنا أحاول إخفاء ابتسامتي.

"إذاً عن ماذا الأمر؟" سأل، يحاول استكشاف الجدية في عيني.

قلت فوراً بحماس: "ماسا."

لم يستطع عمار أن يحبس ردة فعله؛ بعبارات لم أتوقعها، شتيمة لي و لماسا والوضع المحيط بها.

"اهدأ يا رجل، لدي شيء يجب أن تعرفه"، قلتها ساخرًا، وعلت ضحكتي أكثر.

بعد أن استعاد تماسكه، قال متسائلاً: "ماذا عن ماسا؟"

شرحت له بلّهفة: "تاريخ ووقت تلك الورقة يجعلاني قلقًا بشأن ماسا.

ولا تنسى حلمي مع تلك الفتاة بالثوب الأبيض والورقة الأخرى التي تحمل كلمات 'الحقيقة' و'ماسا'. هذا يؤكد ارتباط ماسا بكل هذا."

عمار أخذ ينظر إلى الطبيعة ويفكر بعمق.

"ماذا تعتقد؟" قلت له متسائلاً.

"والله، لا أدري يا عيد. هل لديك خطة؟" كان صوته مشحونًا بالحيرة.

أجبت بتأكيد: "علينا أن نجد ماسا."

يزن:

أغلقت شاشة الكمبيوتر وأنا متردد قليلًا.

لـم يكن عيد صديقًا مقربًا، على العكس، الأمر يقتصر على التحيات في الأعياد وبعض التجمعات العابرة فقط.

لذلك اتصاله حمل نبرة الغرابة بالنسبة لي.

"أهلاً يزن، هل بإمكانك الحضور إلى الحديقة بجانب منزل عمار؟ نحن هنا ونحتاج إليك في أمر ما"، قال عيد بصوت يشوبه الجدية.

أجبت، مخفيًا تساؤلاتي: "بالطبع، أعطني بضع دقائق وسأكون هناك."

بعد أن اضغط الزر الأحمر لإنهاء المكالمة، جلست لحظة للتحليل. لِـمَ يطلب عيد مقابلتي بشكل مفاجئ؟ رغـم ذلك، شعرت بأن هذا قد يكون فرصة لتقوية الصلات بيننا. قد تكون هذه بمثابة بداية لصداقة أعمق.

انا يزن، الشخص الذي فتنته التكنولوجيا واحترفت رموز البرمجة وأنا بالكاد ابتعد عن لوحة المفاتيح.

خرجت متجهًا نحو المكان الذي سيجمعني بعيد وعمار.

خلال المشوار، شغلتني الأفكار حول ما يمكن أن يخبئه هذا اللقاء، لكن التشويق كان يعادل التحفظ.

كنت على يقين أن هذا اللقاء سيحمل معه شيئًا خارج المألوف، سواءً كمشروع تكنولوجي أو معضلة تحتاج إلى حلول خلاقة.

عيد:

شدني منظر يزن وهو يقترب، يأكل بشهية وكأنه لم يتناول الطعام منذ أيام.

"في كل مرة نراك تأكل، يا يزن!" قال عمار بنبرة تداعب السخرية.

وصل يزن وما زالت ثمرة التفاح تزين يده.

بعد السلامات والتحيات، جلس يزن مستفسرًا: "حسنًا، ما المهم الذي جمعنا هنا؟"

بدأ عمار يذكره بقصة سمع عنها في اجتماع سابق، ومن ثم انتقل السؤال ليزن، الذي استغرق برهةً ليجمع شتات ذاكرته: "آه، نعم، أتذكر الآن."

"ولكن، هل سيشارك وليد في هذا الأمر؟" سأل يزن بنبرة حذرة.

"لا، الأمر بيننا نحن الثلاثة حاليًا،" أكدت، مشددًا على أهمية السرية.

ومن ثم بدأت بسرد الأحداث، دون ترك مجال لأي

تفاصيل تفلت من القصة.

بعد أن أنهيت، عملنا جميعًا أذهاننا لحظة في صمت.

ثم ألقيت بسؤال مهم: "ما التاريخ اليوم؟"

استفسرت وأنا أشعر بالوقت يضغط على أعصابنا، فأجاب

يزن بسرعة: "اليوم هو العاشر من نوفمبر."

"هذا يعني أن أمامنا 16 يومًا فقط... للتاريخ المذكور

على تلك الورقة '26/11' نحتاج إلى إيجاد ماسا

بأسرع ما يمكن!" كنت أشعر بالحدة في صوتي.

"هل لديكم رقم هاتفها؟" سأل يزن بصيغة

الاستعجال.

"للأسف لا"، رديت بخيبة أمل.

"ربما حسابها على مواقع التواصل يمكن أن يفيدنا؟" قال ذلك عمار متسائلاً.

نظرت نحو يزن، الذي كانت عيناه تشعان ببريق الثقة.

"آه، يمكنني العثور على رقمها من خلال حسابها، وبالتالي تحديد موقعها"، قال يزن وكأن الأمر إنجاز رقمي بسيط بالنسبة له.

"حسنًا، فور عودتنا ستصلك التفاصيل اللازمة"، وعدته، وأنا أعلم أن علينا أن نتحرك بسرعة.

لم تعد هناك لحظة لنضيعها، وبنظرات متبادلة معبأة بالعزم، ودعنا الحديقة متجهين نحو مهمتنا اللاحقة.

بعدما تفرقنا، متجهًا كلُ منا إلى منزله، وجدت نفسي وأنا أقترب من الباب الأمامي لمنزلي، تملكني شعور بالحنين. بدا الوقت طويلاً منذ أن منحت نفسي الفرصة لقضاء بعض الوقت مع والديّ.

جلسا هناك، في غرفة المعيشة، قد احتلا المساحة بأجوائهما الهادئة.

تسربت اليّ طاقة مختلفة، دعتني لترك بؤرة تركيزي قليلاً.

نصف ساعة من الفكاهة والضحك، غادرت إلى غرفتي، وبمجرد ما أغلقت الباب خلفي، ارسلت ليزن صفحة ماسا. أخبرني بأنه سيبدأ لاحقًا بالبحث عن أثرها؛ رقمها أولًا، ثـم موقعها.

وفي غمرة الانتظار، أقبلت على الكتابين اللذين اقتنيتهما منذ أيام معدودة.

"ما الذي قد يمنع؟" همست لنفسي متناولاً كتاب 'بلا ملامح' بفضول باحث.

"ربما في ثناياه ما يضيء دربي لحل لغز الطيف الذي أرقني والورقة التي تحمل اسم ماسا". انغمست في القراءة، أتقلب بين الصفحات علّي أجد خيطًا يرشدني، لكن كل ما وجدته، كان مجرد رجل عديم الملامح يتسلل إلى وهج المشاعر ليظهر لأصحابها المخلصين.

لم يكن ثمة أي ذكر للورق أو للرسائل اللغزية.

مع صوت الكتاب وهو يُغلق، استسلمت للانتظار، كلي ثقة أن يزن لن يطيل غياب الجواب.

وها هو صدق الحدس يتجلى أمامي واتسعت حدقتاي وأنا أرى الإشعار يبرق على شاشة هاتفي؛ إنه يزن يوفي بوعده. بكل حذر، انتظرت حتى تنهي تحميلها، وبتثاقل النفس خالطها الفضول، انقرت لأكشف موقع ماسا.

وكأحجية أزلية تتكشف فصولها دون إذن الوقت، كانت المفاجأة كبرى والعقدة تختمر؛ لقد كانت تسكن بجوار منزلي،فقط على بُعد خطوات قليلة فقط!

ثلاث بنايات تفصلني عنها!

تهادت قشعريرة على ظهري مع الاكتشاف، إذ جعلتني المسافة القصيرة تلك أشعر وكأن كل المعاني قد تحتشد في ركن قليل من العالم، وأن الأسرار التي كنت أبحث عنها، كانت طِوال الوقت تسكن جدران الجيران.

تملكني الترقب ومزيج من الدهشة والحيرة، فقلما تتوقع أن تدور رحى القدر حول أروقة الحياة اليومية، وأن تلامس الأساطير أرض الواقع الذي نمشي عليه كل يوم.

الحلقة الحادية عشر:

صباح أم مساء

بينما كان الظلام يحتضن الأرجاء، ويغلف الغرفة بسكون الليل العميق، اخترقت الصمت بخافت رنين الهاتف، مسجلاً اتصالاً سريعاً نحو عمار. "لقد حصلت على الموقع"، بدأت الحديث بنبرة حماس واضحة في صوتي.

"وأين هو موقعها بالضبط؟"، جاءني الصوت المليء بالتوقع من عمار.

الكلمات اصطدمت بشفتي، تاركة سكوناً برهة قبل أن أطلقها بصدمة محسوسة، "إنها... ليست بعيد... فقط على مقربة مني، بثلاثة مبانٍ فقط."

عمار، في ذهوله المرح، لم يترك لسان حالي يستجمع أنفاسه، وقال ضاحكًا بخفة دمه المعهودة: "يا الهي، وكيف لم تصادفها يومًا؟ بالطبع، أنت الشاب الانطوائي الذي لا يستطيع ملاحظة أن الفتاة التي يحبها تعيش على بُعد خطوات!"

حلقت ضحكتي في الهواء ردًا على تعليقه، ثم ابتسمت قائلاً، "حسنًا، غدًا ستأتي إلى منزلي، سنعقد جلسة تفكير لنضع خطتنا للتعامل مع هذا الأمر."

"ممتاز، سأعلم يزن كذلك ونتقابل جميعًا لديك"، أكد عمار بروحه المعنوية المرتفعة.

ومع صوت النقرات الأخيرة، تبعثر الصمت مجددًا على قميص الليل، بينما أقطع الخط لأستلقي على السرير، أترك ناظري يتنقلان بين الأركان المعتمة للغرفة.

وبلهفة الفضول، أشعلت شاشة هاتفي مجددًا لأتوغل في فحص موقعها. أعمل حواسي جميعها في التقاط أدق التفاصيل؛ كم من الشارع يبعد مبناها عن الزاوية، كيف يتسلل النور إلى نوافذها، والزقاق الذي يمر بجوار بابها الأمامي.

حفظت خريطة الأماكن بأدق ما يمكن، كرسام يخطط لملامح لوحته القادمة، ثم، وفي هدأة كاملة، أغلقت الهاتف تاركًا الظلام يلفني مجددًا.

الأفكار تسبح في خاطري، وكل واحدة منها تنبت جناحًا يحملني بين احتمالات الغد.

ماذا سيحمل الغد من مفاجآت؟ ما الذي يمكنني فعله الآن وأنا أقف على بعد أنفاس من الخطوات القادمة؟ وهل ستكون خطواتنا هي المفتاح لكل هذه الأحداث المتشابكة؟ غطتني أفكاري وأنا أنزلق شيئًا فشيئاً نحو النوم، في انتظار فجر مليء بالإجابات.

أحاطني النعاس كغشاء كثيف، يلف الوعي في أحضان طويلة من الراحة.

لقد كان النوم شاهقًا كأني غصت في سبات عبر أوقات وأزمنة مديدة، لأستفيظ على وقع خلخال الزمان يدق فجرًا جديدًا .

صوت الهاتف وقع كقطرات ماء تتسلل عبر صمت الغرفة؛ كان عمار يحمل في صوته طاقة الصباح الأولى. "متى تود أن نزورك؟" سأل بسرعة.

الإجابة لم تكن إلا همس صوتي المبحوح، "كما تشاء" .

"حسنًا، نصف ساعة أنا ويزن سنكون عندك"، قال بقرار وكأنه يقطع اللحظات نصفين ليصل بوقته نصف الوفاء .

بأطباق النوم عالقة على جفني، جلست على حافة العالـم المعروف بفراشي، أحاول بمهل إذابة ليل أمس في قهوة الصباح اليوم.

ومع تيار الأحاديث الدافئة التي تبادلتها مع والديّ، فأضافت فنجان الفكـر برعـم أمل بإمكان تحقيق الخطط الطموحة بدفء ورحابة صدر.

لـم تطل الهنيهة حتى كان طرق الباب ينادي بوصول الرفاق، ففتحت على مصراعي القلب لخطواتهـم التي لبت الدعوة.

تسربنا إلى غرفتي، وسط تبادل التحايا والاستفزازات الودودة، واصطففنا كرتبة جند في هدنة.

"فما التالي؟"، طرح عمار بمحياه المنفتح على الأيام.

أسئلة تعلقت في هالة الغرفة، "ترى، هل '1:17'
تلك الساعة على ذلك الورق هل هي مساءً أو
صباحًا؟"

عمار، بعفوية مزاجه، قاطع رياح الشك قائلاً بمرح،
"يا لك من أحمق! بالطبع في المساء. فما تحليلك
لموقظ الموتى صباحًا؟"

أما أنا، وقد غمغمت بابتسامة طائرة على شفتي،
"ولكن ما ضمانة أن الأمر ليس عند الفجر؟"

حرك يزن خيوط النقاش بمنظار الحكمة،
"كلامك في مكانه، عيد لا يمكننا معرفة ما
يدور بعالم الساعات تلك."

تلك الساعة... تلك المواعيد كتبتها عماد الخطة الماضية نحو قمة الحدث الكائن في '26/11'. اقترحت أن نكون جاهزين قبلها بوقت كافٍ، صباحا ومساءً، على شرفة أحداثنا، بجانب منزلها، مراقبين بصمت.

عمار، بنظراته المعلقة على خيوط الفضول، أومأ برأسه بعد القليل من التفكير. "أنا مستعد"، قال، فللقلب قراراته التي يكتب بها فصول الغد.

الحلقة الثانية عشر:

1:17

ماسا:

استيقظت من النوم على صوت صراخ عالٍ، وكأن اليوم يبشر بالسوء منذ بزوغ الفجر.

خرجت من غرفتي لأجد والديّ في خصام عنيف وأختي الصغيرة تبكي.

ناديتها برفق، فركضت إليّ وهي تشهق من البكاء.

أدخلت بها إلى غرفتي، وأغلقت الباب بإحكام.

جلست على السرير أحتضنها بهدوء محاولةً تهدئة روعها بالكلمات المواسية.

بعد أن خفت نحيبها، سألتها بهمس: "ماذا حدث يا صغيرتي؟" فأجابتني ببراءة تليق بسنها: "لا أعلم، استيقظت فقط على صوت الصراخ." نظرت في عينيها البريئتين، ومررت يدي برفق على شعرها الناعم محاولةً زرع الطمأنينة في قلبها الصغير.

تلاشى الصوت بالخارج تدريجياً حتى هدأ البيت، كأنه لم يعمّه يومًا ضجيج.

قلت لأختي أن تبقى بأمان على السرير، فيما خرجت لأستكشف ما حدث.

البيت صامت مخيف ولا أثر لأحد.

دنوت من غرفة والديّ مخترقة الصمت بطرقات خافتة على الباب. لا مجيب. دخلت لأجد أمي تبكي بصمت. جلست بجانبها، وقلت والحزن يعتصر صوتي: "يا أمي، ما الذي يحدث؟"

احتضنتني دون كلمة، وشاركتها دموعها من دون إرادة. نظرت إليّ بأمومة تكاد تغطي على الألم في عينيها. عندما سألتها مرة أخرى، ابتسمت لي وهي تمسح دمعة عن وجنتي، مؤكدةً أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ولكن غياب والدي أثر فيّ بشدة، فكان دائمًا ما يثير البلبلة في حياتنا.

على كرهي لأقولها، شعرت بمرارة كبيرة تجاهه.

عدت إلى غرفتي حيث كانت أختي الصغيرة في انتظاري. كبحت دموعي وعزمت على أن أكون الصخرة التي تلجأ إليها.

احتضنتها بقوة لفترة طويلة حتى استسلمت للنوم. وضعتها على سريرها برفق، ثم سرحت في المنزل المظلم أتأمل ملابسات حياتنا.

كل تلك المشاكل... لا أستطيع فهمها، لكني أعرف شيئًا واحدًا بيقين: أنا، أختي، وأمي لا نستحق هذا العناء.

عيد:

لم أتوقف عن التفكير في الأيام التي تسابق الريح، حيث يؤرقني ذلك التاريخ الذي سرعان ما يندلق على صفحة الواقع، 26/11، والآن نحن على أعتابها، 25/11 يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ارتديت ملابسي وأنا أمحو تلكون النوم من عيني، وعندما قابلت والديّ أعلنت عزمي على الخروج، "سأغادر البيت ليومين، أنا والأصدقاء لدينا خططٌ خارج المنزل."

تبادل عليّ والدي نظرة يملؤها الاستغراب، "يومين كاملين؟ إلى أين الرحيل، يا بني؟" وما كان مني إلا أن أحيك من كذبة لطيفة، سترًا لمخططنا، "سنذهب إلى مزرعة أحد الأصدقاء."

وهم والديّ بالسؤال مجددًا، "هل ترغب في شيء قبل الرحيل؟" فترددت بصدق عابر، "لا أريد سوى سلامتكما، أنت وأمي."

لمسة ابتسامة زيّنت وجهيهما وودّعاني بدعوات الخير والسلام.

بعدها، أحكمت خطاي نحو بيت عمار، حيث التقيت بيزن زميل السر واللحظات العصيبة.

بمجرد دخولنا غرفة عمار، أغلقنا الأبواب وراءنا، حاجبين عنا أنفاس العالم، وشرعنا في حياكة خيوط المؤامرة. "عند منتصف الليل بتاريخ 11/26، يجب أن نكون متأهبين تحت منزل ماسا." كانت تلك هي الخطة، ولكن عمار مطّ بتحفظه، مشيرًا إلى غرابة توقيت العملية مجدداً، "1:17 فجرًا وقت باكر جدًا، لا أعتقد أن ثمة ما سيحدث." ولكن، كان عزمي لا يلين، "يجب أن أذهب، حتى وإن كان لوحدي."

قال يزن، "أنت مجنون؟ لا يمكنك الذهاب بمفردك في هذا الوقت.

بدأنا هذا المشوار سوية وسنكمله معًا." وأيده عمار بثقة، فتوافقنا جميعًا على أن نتسلح بالشجاعة ونقف جنبًا إلى جنب عند منزل ماسا في الساعة المحددة.

يزن، بغرابته وأفكاره الخارجة عن المألوف، قذف بكلمة تعكر صفو تفكيرنا، " ماذا لو كانت الأسنان المتناثرة تعني شرًا محدقًا بماسا؟ هل نواجه هجومًا أو حادثًا مروعًا؟" شعرت بخوف ينمو داخلي كظل يتسع مع غروب الشمس، "لا سمح الله" كان كل ما استطعت قوله.

أنا و عمار تبادلنا نظرات القلق حينما قال يزن إنه أعدّ للأسوأ، واستطرد قائلاً إنه استعار مسدسًا من والده الضابط.

فيما عمار نهض بسرعا و بدأ يرفع صوته محتداً على يزن، "أحمق! كيف تجرأت وأحضرت سلاحاً؟! ما الحاجة إلى كل هذا الجنون؟"، كانت عيناه تلمعان بغضب وأسى لما وصلت إليه الأمور.

وبيزن يحاول التهدئة مع الإصرار في نبرته، "استرخ، لن أستخدم المسدس إلا إذا كانت هناك حاجة ماسة."

لكن عمار لم يقبل هذا التبرير ورد بثبات، "لا، حتى في حالات الضرورة لا نريد أن نتورط أيدينا بالدماء."

وأنا، مكتفٍ بالصمت، أنظر إليهما غارقاً في الصدمة. كانت أفكاري تدور في فلك الريبة والقلق، متسائلاً عن متى وكيف بلغت خطتنا هذه الدرجة من الخطر.

علا صوت عمار بالإصرار، "المسدس لا يجب أن يبقى مع يزن، إذا اصرّ على أخذه فأنا لن أذهب معكم!" تفاجأت ببرودة فعله وقلت بسرعة وقلق، "مهلاً، هل ستخرب خطتنا كلها بسبب مسدس؟"

ثم التفت بغضب نحو يزن، محاولاً إيجاد حل وسط يمتص التوتر، "أعطني المسدس،" قلتها بحزم.

استجاب يزن ومدّ لي السلاح دون تردد. "سيبقى معي، وكفى الآن حديث عن هذه المسألة."

ساد صمت ثقيل بيننا بعد ذلك، قطعه عمار فجأة بضحكة عالية وقال متهكماً، "هل تعي ما فعلناه؟ مسدس، يا يزن؟" صدى ضحكته انتشر في الغرفة وكسر حاجز الصمت، وبدون أن ندري ضحكنا جميعاً، ربما براحة أو لأن التوتر تلاشى أو لمجرد أن الوضع بدا غريباً بما يكفي ليدعو للضحك.

ضمن أصوات الضحك المتعالية، ألقى يزن جملته كأنه يضع نكتة أخرى، "لم أحضر المسدس فقط..." تجمّد ضحكنا على الفور، وتبادلت أنا وعمار النظرات، متوقعين الأسوأ.

ثم بنبرة ساخرة تحدث عمار، "وماذا بعد؟ هل جلبت معك قنابل نووية؟" وضحكنا مرة أخرى، عاكسين التوتر الذي اختبرناه قبل لحظات.

لكن يزن قال مبتسماً، "لا، ليس بهذا القدر، لكني أحضرت أقنعة لنرتديها أثناء العملية." عمار علّق بعدم تصديق، "أحمق، لا نخطط لسرقة بنك! نحن ذاهبون لأمر قد يكون لا يعلم بتفاصيله إلا الله، وليس من المفترض أن يكون خطيراً لهذه الدرجة!"

رد يزن بثقة وبلا تردد، "بما أن الأمر غير معلوم إلا لله، فمن الأفضل أن نتستر." وجدنا منطقه مقنعاً لدرجة أننا قررنا دعم فكرة ارتداء الأقنعة خلال تنفيذ خطتنا.

يبدو أن المزاح قد خفف من وطأة القلق الذي كان يخيم على الجو في البداية.

رغم كل الدعابات، كنا جميعًا ندرك في دواخلنا أن ما سيحدث غدًا لا يزال مجهولاً وربما يحمل تحدياته الخاصة.

عندما قرّر عمار ما سيقوله لأهله وشاركنا خطته، أعطيناه دعمنا والتزمنا باحترام الترتيب والتنسيق فيما بيننا .

وبعد أن غادر ليبلغ والديه، عاد بسرعة بابتسامة مرتاحة على وجهه، مؤكدًا أن أهله وافقوا على خروجه بذلك الوقت بكذبة سهره عند أحد اصدقائه و سوف نعود جميعاً في الصباح الباكر.

كان هذا تقدمًا مشجعًا وشعرنا بنوع من الارتياح، وكأن قطعة صغيرة من الأحجية قد وضعت في مكانها الصحيح، ممهدة الطريق نحو الخطوات التالية من خطتنا المحفوفة بالمخاطر والمليئة بالمجهول .

أحاط بنا الظلام بينما كان الوقت يتسرب ببطء ممزوجاً

بالتوتر والحذر.

السماء كانت ملبدة بالغيوم كأنها تحس بثقل ما كنا

بصدده. كنت أشعر بانقباض داخلي بينما نحن نتجه إلى

الموقع، كانت كل دقيقة تقترب من اللحظة الموعودة

تزيد من نبضات قلبي.

لـم تكن الرحلة طويلة، لكن كل دقيقة بدت

كحقبة من الزمن عندما أنتظر شيئاً محفوفاً بالمجهول.

وها هو كل شيء يجتمع حتى تلك اللحظة الأخيرة،

الدقائق العشر الأخيرة قبل البدء.

مع وصولنا، رتبنا الأقنعة على وجوهنا، كل واحد منا

يحاول قمع الخوف المستعر في قلبه.

نظرت إلى عمار ويزن؛ عيونهم مركزة، تعكس الصلابة والإصرار ولكنها لا تخفي أثر القلق الذي تعلق بنا كظلال يصعب هزيمتها.

هناك شيء خاص بالأوقات التي تسبق مغامرة كبيرة أو خطوة جريئة، لا أحد يعرف ما ستحمله اللحظات التالية، وتراتيل القدر تعزف بصمت، تنتظر أن تبدأ حكايتها.

استطاع يزن أن يجلب بعض الهدوء في اللحظة المضطربة عيناه كانتا تنبعث منهما الحزم وفي الوقت نفسه الاطمئنان وهو يضع خطة سريعة لكيفية التعامل مع الوضع المحتدم. "لكي تهدأ،" رد بصوت متماسك،

"لن نترك الأمور تفلت من أيدينا.

لدينا خمس دقائق... إذا لم يطرأ أي جديد بعد دقيقتين، فإننا سنقرر ما هو الإجراء التالي.

أنا وأنت وعمار سنتحرك معًا."

على الرغم من الشعور بعدم اليقين الذي هدد بشل أطرافي، استنشقت نفسا عميقا أملاً في استعادة بعض التحكم في نبضات قلبي التي كانت تثقل أنفاسي.

نظرت إلى عمار في صمت، محاولاً التأقلم مع هدوء يزن، فاتخاذ قرارات متسرعة قد يزيد الأمور سوءاً في مثل هذه الظروف.

تراقبت أنا ورفاقي بينما تمر الثواني ببطء.

الرهبة والتوتر كانا واضحين في نظراتنا، لكننا كنا متفقين على التحرك بحذر وكأفراد واحد لا يرمي أحدهم بنفسه في المجهول دون الآخرين.

ماسا:

صرخات تتسلل من بين شقوق الليل لتعكر صفو الظلام.

أشعر بالغليان داخلي، فتفيض عصبيتي ولا أستطيع البقاء خامدة في غرفتي.

أترك السرير البارد خلفي، أبحث عن مصدر تعاستنا المعتادة.

والدي، الذي يزرع الفوضى بلا كلل، ها أنا أواجهه بضجر متراكم، أصرخ بلا وعي: "كفاك!" كل كلمة تخرج كقذيفة تتمنى إيقاف الزمن المتعفن الذي نعيشه، هو السبب في كل معاناتنا اليومية.

والدتي تعاني لتحميني من نفسي، تحاول أن تكون الجدار الفاصل بيني وبين الحقيقة البشعة.

لكنني، لا أصغي ولا أسكت.

الكلمات تنساب مني، صراخ لا يعرف الهدوء.

والدي، بلا كلمات، يتراجع، يغيب للحظات، ثم يعود حاملاً الفزع في يده، سكين يلمع في الظلام.

أرتجف وأتراجع، وقلبي يعلن عن الخطر المقبل.

يجب أن أحمي أمي، يجب أن أنجو وأحميها من هذا الجنون.

أوجه التساؤلات لوالدي "ماذا تفعل؟" لا يوجد وقت للجواب، فأنا بالفعل أبحث عن مخرج.

أفتح باب المنزل وأهرب إلى الليل اللامتناهي، نازلة درج المبنى والذعر يحفز خطواتي.

لم يمهلني والدي فرصة، لحقني والقدر يلعب بنا كقطع في لعبة غامضة.

أبلغ باب المبنى لأجده يرفع يده حاملاً السكين.

الخوف يدفعني لإغلاق عيني، استسلم لما قد يحل بي. لكن القدر لم يكن قد كتب نهايتي بعد.

صراخ غريب يقطع حبل الموت الممدود، أفتح عيني لأرى مقنّعاً يتصدى لوالدي.

دمه يسيل وهو يحميني، وتحت نظراتي التي تلتجئ للدموع، يدور الصراع.

المقنع يقاتل ويسقط والدي أرضاً، يضربه بنية الدفاع، لكن والدي لا يستسلم بسهولة.

إنها معركة حقيقية أمامي، وأنا أكاد أفقد الأمل مع كل لكمة.

ثم، فجأة تظهر شخصيات جديدة، تدخلان متقطعان الوقوع دون نهاية تبدو وشيكة.

يصر والدي على أن أصعد للأعلى.

لكنني مشلولة، لا استطيع الاستجابة، فقد قيد الخوف أرجلي.

وفي لحظة غفلة مني، يهجم عليّ ولكن قبل أن تلمسني يده، يدوي صوت الرصاص في الهواء، صوت يجمد الأرواح قبل الأجساد. أفتح عيني، أرى والدي يتهاوى، الساقط قد سقط، والمقنع بالمسدس يقف ثابتاً.

اختطفتني صرخة من صميم قلبي، "لاااا، أبيبي!" كان صداها يعلو فوق السكون المفاجئ. وبينما الدموع تعميني، أدركت أن المقنعين الآخرين كانوا قد هربوا، تاركين خلفهم مأساة ليلية تضاف إلى قصص الليالي السابقة.

الحلقة الثالثة عشر:

ليلة القدر

عيد:

كانت الدقائق تمر كساعات، يزن يهمس لي وعمار بالبقاء على أهبة الاستعداد، مطالباً بالصبر، يقول إن الوقت سيجلب الفرصة.

الصراخ كان يتعالى، يكسر الصمت الليلي.

قلبي يرفض الهدوء، يخفق بعنف وتوتر، وأنا أقف هناك، أترقب.

مرت ثوانٍ بطيئة حتى شاهدت ماسا تظهر من العتمة – هي، تلك التي لا يمكن لقلبي أن ينساها للحظة.

لكن الراحة لم تكن هي ما تحمله تلك اللحظة، وراءها كان الخطر يتبعها بخطى حثيثة، رجل يمسك سكين، ينوي الأذى. لم يتوقف عقلي ليفكر بل فعلت ما بدا وكأنه الأمر الوحيد الذي يمكن فعله، دفعت يزن وعمار بعيداً، ووجهت كل طاقتي نحوها.

عندما رفع الرجل يده ليصيب ماسا بضربة كانت ستغير كل شيء، حميتها بكل ما أملك.

الطعنة خرمت يدي والدم بدأ يسيل ولكن لم يكن هناك ألم يُذكر بالمقارنة بألم فكرة خسارة ماسا. غضبي كان سيد الموقف، سيطرني ودون وعي وجدت نفسي أضع الرجل أرضاً وأطلق يدي لتضرب، كلما رأيت الدماء تتزايد على وجهه كانت حمايتها الوحيدة تزيد قوة في نفسي.

لكنه، ببعض الحيلة، دفعني بعيداً وتهاويت أنا على الأرض.

يأتي يزن وعمار إلى جانبي، الرجل يتجمد للحظة، ينظر حوله بتوتر، تركيزه يتنقل بين الغضب واليأس.

يجهر بأمره إلى ماسا مطالباً إياها بالعودة إلى المنزل.

أشعر برغبة محمومة بالانقضاض مجدداً، لكن يزن، يستخدم قوته ويقوم بمسكي تجاهلًا لرغبتي في الهجوم.

رأيته من جديد يتهيأ للهجوم على ماسا، وفي تلك اللحظة، الزمان كأنه توقف.

لم يسعني سوى التفكير في الحماية، في مسدس يزن الذي تسللت يدي لاشعوريًا لأخذه. مددت يدي، وأطلقت النار دون تفكير، الرصاصة اخترقت ظهر الرجل.

شرعنا في التراجع، أنا ويزن وعمار، تسري في عروقنا شعور ممزوج بالرعب والصدمة.

صرخة ماسا، مليئة بالألم والخسارة، تصدح "أبي!" فتزلزل قلبي بالفهم المؤلم، لقد كان والدها. بدأنا نتراجع، ومن ثم بدأنا الهروب، تاركين خلفنا الليل العاصف وقلباً محطم في صدر ماسا.

الهروب كان طويلاً والأرض كانت تبتلع أقدامنا بصعوبة. حين وصلنا إلى مكان خالٍ، توقفنا للحظات لنلتقط أنفاسنا . كان اليأس يعصرني، الغضب يفور، فشلحت القناع عن وجهي وأطلقت العنان لدموعي وصرخاتي، "ماذا فعلت؟ يا ربي!" كان يزن وعمار صامتين، الصدمة تجمد ملامحهم، والصمت يسود .

أجلست نفسي على الأرض بيأس، أضرب الأرض بقوة، كأنني بذلك أطرد غضبي وحزني. يزن، في محاولة لإخراجي من موجة اليأس التي غرقت فيها، أمسكني بقوة، يحثني على التهدئة، يحاول أن يثبت لي بأن الهلع لن يغير من واقعنا شيئاً .

بعطف، أخذ يلف القناع حول يدي الجريحة، يضغط عليها ليخفف النزيف، بينما كان عمار لا يزال في صدمته، متجمداً في مكانه.

يزن حوّل اهتمامه لعمار، يحاول ايقاظه من الصدمة، يساعده ليقف على قدميه.

نحن الثلاثة واقفون هناك، الدموع تلطخ وجهي، وكأنها تجر الأمل معها أسفل خدي.

في تلك اللحظة، بدا لي القرار واضحاً كنداء الحقيقة، قلت لهم بلا تردد، "سأذهب إلى ماسا.

لا يمكنني تركها وحدها في هذا الموقف." يزن رد سريعاً، متسائلاً باستغراب وقلق، "أتذهب إلى ماسا؟ هل فقدت عقلك؟ أتركنا نذهب إلى بيت صديقي."

الخطة بُحثت، الحيرة كانت واضحة في عيني يزن حين تطرق إلى مشكلة الإصابة والدماء ووقتنا المتأخر.

وبينما كنا نتجادل حول الخطوة القادمة، ظهرت فكرة عمار مطروحة بثقة، "لنعد إلى منزلي. . . بصمت. سندخل الغرفة ولا أحد يكون له خبر." كان القرار صعباً، لكنه بدا الأقل ضرراً في الظروف المحيطة.

وهكذا، بخطوات متثاقلة وقلوب تكاد تنفجر من الحزن والشك، عدنا إلى بيت عمار.

دلفنا إلى الغرفة المنتظرة وجلسنا على السرير، كل منا يحاول أن يعي ما حصل. "هل هذا حلم؟ يا إلهي. . ." كانت الأفكار تدور في رأسي كسيف يقطع الواقع، مع محاولة فهم ما حدث.

ماسا:

وقفت هناك، غارقةً في بحرٍ من الدموع، وصوت صراخي يخترق صمت الليل المؤلم. والدي، يرقد الآن أمامي وقد أصابه الأذى، جسده ينزف وأنفاسه تخفت تحت وطأة الألم.

حجم الفزع الذي أحسست به يتخطى الوصف، وتجمهر الجيران حولنا يضيف إلى فوضى المشاعر.

رأيت والدتي تسقط أرضًا، قواها تخونها أمام مصاب جلل، ونحيبها يمزق أوصال الهواء.

وبأطراف مُرتعشة توجهت إلى أختي الصغيرة، الطفلة التي لم تكن يومًا لتتصور مثل هذا الليل، وضممتها إلى صدري؛ كنت أحتاج لشدة قوتي لأحميها، لأبعدها عن الحقيقة المؤلمة التي يكاد ينكشف عنها الستار.

ثم بادروا، جيراننا المخلصون، أخذوا والدي إلى المستشفى.
ركضنا خلف الأمل، أو ربما كان من نركض خلفه سراب الأمل.

في غرفة الانتظار، كل دقيقة كانت كساعة من العذاب، تضيق بنا الجدران مع كل نبضة قلب، والأسئلة تتردد بلا توقف.

"يا إلهي، ما الذي جرى؟ لماذا حدث هذا؟ من هم هؤلاء المقنعون؟ أين كانوا وكيف أتوا لإنقاذي من والدي؟".

أجواء الترقب كانت تخيم على المكان والصمت يسود الممرات.

نظراتنا لا تفارق الباب الذي سيخبرنا بمصير والدي.
وعند ظهور الطبيب، بدا على محياه الظل والكآبة؛ يخطو نحونا كل خطوة تهز أركان قلوبنا وتصدح بدقاتٍ متفجرة من أعماق الخوف.

كلماته كانت كصاعقة: الشلل السفلي. العبارة أصداءها تجلجل بين جدران المستشفى وداخلي.

والدتي كانت كجبلٌ يتزعزع، وأشعر هنا برغبتي العميقة في توفير بصيص أمل، بالرغم من وجعي وتشوشي والرعب المستتر بين ضلوعي.

ومع ذلك، نطقت ب"الحمد لله على كل حال"؛ كلمات قوة في لحظات ضعف، تؤكد على الشكر والصبر، فالموت كان هاجسًا أسود يطارد تفكيري والآن عليّ التعايش مع واقع جديد. نعم، لا بد من الإمتنان لأن لدينا فرصة لنكون معه، والدعاء لعودته إلى جانبنا بأي شكلٍ كان.

وقفت بجانب والدتي، ذراعاي تحتضنها، أحاول تجميعها من تلك الأشلاء المشاعرية، أجد لديّ قوة لا أعرف مصدرها، ولكنها بالضبط ما نحتاجه الآن.

وبجانبي، أختي الصغيرة التي تعكس البراءة والحيرة، فكلانا يعانق الأخرى محاولين فهم مستقبلنا الذي تغير بمحض لحظة.

عيد:

في جوف تلك الغرفة المشحونة بالشجن، كنا نحن الثلاثة؛ أنا، عمار، ويزن.

لفّنا الصمت بأذرع الذهول، تتخلله نبضات الرعب الصامتة. ضاقت بنا الجدران، وكأنما لسعات الحقيقة المُرة تُشكّ الهواء.

"ما حدث هناك ليست إلا جريمة قتل!" قد يشهق الصدق تلقائيًا من بين شفتيّ.

كان يزن، ببرود يخالطه الحزم، يحاول تهدئة عواصف أنفسنا. "ومن قال لك إنه مات؟"

عبّر بها يزن وكأنه يضخ الأمل على استحياء.

"لقد أطلقت النار على ظهره، كيف له أن ينجو؟" سألتُ بانفعال شديد. ردّ يزن بنبرة مفعمة بالتأنّي،

"قد يصاب بالشلل، لا أن يموت، هذا بعيد المنال. لا تثقل كاهلك بالتفكير فيه الآن."

وفيما الأسئلة تقفز في رأسي كأنها شرار بارود، أطلقتُ واحدة منها: "وماذا لو تعقبوا مصدر الرصاصة؟"

يزن، بضحكةٍ بلّلت الجحيم بشذى السخرية، أجاب: "يا أحمق، لو كان هذا سلاح والدي، أتراني أحمقًا لأحضره؟"

"ماذا تعني؟" استفسرت بحيرة تكسو صوتي.

"هذا السلاح ليس إلا قطعة مسلوبة من إحدى العصابات، صادرها والدي خلال مهمة أمنية.

وقد خبأه في المنزل، الرصاص التي بداخله غير راجعة لأي قوة أمنية.

وغدًا، سأعيده إلى مكانه دون أن ينتبه أحد.

لا داعي للخوف."

هنا شيئًا ما في صدري استكان.

أشعر بسكينة تترقرق كبلسم على جرح نازف.

ومع ذلك، لم تُغلق كل أبواب القلق؛ فتحتُ مجددًا بوابة التفكير عن ماسا، ما تكون قد لاقته؟ هل تكون بخير؟ والقلق يعاود غزوي مرة أخرى.

الحلقة الرابعة عشر:

سرديات الغسق

في لحظة هدوء تلتف بها أجواء الغرفة، كسر عمار المشهد بصوته القاطع، "اليوم قد ارتكبنا فعلاً جنونيًا، غير معقول، شيء لـم أتصور يومًا أن نقدم عليه." صدى كلماته طاف في أرجاء المكان، ملء الفراغ بالوزن.

يزن، ومعه ضحكة تفيض بالسخرية، التفت إليّ وقال: "يالك من مجنون! لقد أطلقت النار على الرجل. " رديت بخفة دم وبلا تردد: "أيّ شخص يقترب من ماسا، سأفعل كل ما تتوقعه."

فرّ يزن بضحكة أخرى، "حتى لو كان والدها؟"

الضحكات المتبادلة كانت وقودًا للحظة الغريبة التي نعيشها. غمرتنا للحظة، ولكن كم الجدية المقيمة وراء تلك الضحكات أقوى من أن يتلاشى.

فجأة، كأنني كُسرت أسفل وطأة الحقيقة. أتقلص. باعتراف كامل بالواقع المرير، أعود لأعلن: "أنا... وضعت ماسا بموقف لا تُحسد عليه. والدها يحتضر أمامها وهربت. لم أفعل شيئًا." الشعور بالألم في كلماتي شفاف كنقاء الماء.

يزن، قريبًا مني، يمدّ يده حاملاً وزار الواقعية: "ليس بوسعك فعل شيء سوى الهروب، هذا كان الخيار الصحيح." الكلمات الدافئة تحاول أن تلقي بخيوط أمان حول قلب مضطرب، يُبحر في عواصف الشك والندم.

تعالت نبرة يزن بها الحذر والجدية، "يجب أن نتخلص من ملابسنا، رُبما رأوا ما كنا نرتدي." عمار، يحاجّ في أمل، قال "في ظلام دامس كهذا، لم يكن بوسع أحد أن يرصدّنا."

يزن، بصوت يعلو على التوتر، يرد بهدوء، "لكن متحفظين. أبقوا تلك الملابس في المنزل ولا تعودوا لارتدائها مجددًا." وبالإجماع، وافقنا على الخطة.

في نهاية النقاش، عمار، مُسايرًا الإعياء قال "أليس من الأفضل أن ننام؟ النعاس يهاجم عينيّ." واحدًا تلو الآخر، استلقى كل منا حيث وجد مكانًا واستسلمنا للنوم المترقب.

استفقت على صوت عمار وهو يوقظنا، أنا ويزن، "استيقظوا، هناك خبر على الإنترنت!" بلهفة، قفزت أنا ويزن لنطالع الخبر العاجل. "يا الهي، جريمة قتل من قبل عصابة..."؛ غرق قلبي في تيار التوتر.

وجّهت نظرة خائفة نحو يزن، "الرجل قد مات!"

لكن يزن، متماسك ومحاولاً أن يبقي العقل على

متن التفكير الواضح، قال "لا تصدق كل ما

تقرأ على الإنترنت. نحتاج للتحقق بأنفسنا."

عمار، يتساءل بعمق، "وكيف لنا أن نتحقق؟

لقد رأينا الرجل يسقط بأعيننا. لا شك أنه قد

مات." ويزن، صامتًا للحظات، ثم يتفقد هاتفه.

وبعد دقائق قليلة، ينبهنا بخبر جديد، "انظروا إلى

هذا.

لا يوجد أي دليل مؤكد على الموت.

الأنباء تفيد أنه تم نقله إلى المستشفى.

هذا يشير إلى أننا لا يجب أن نستند إلى الأخبار

المتداولة على الإنترنت دون التحري والتدقيق."

وقفت، وتصلب شكلي وسط زوبعة التأملات،

أعلنت بحزم: "أنا ذاهب إلى المستشفى."

يزن، متسلحًا بالسخرية، أطلق ضحكة وقال: "أنت

تمزح بالتأكيد!" لكنني رددت وصوت الجدية

يصدح في كل كلمة: "لا، لستُ أمزح."

بتصريح مُباغت من يزن، يقول: "إذًا أنت حمار يا رجل."

الكلمات تسقط كصفعة، ويعبر الصمت كضيف ثقيل بيننا.

ثم عمار، بنظرةٍ شاخصة نحوي، يعلق: "أتعلم، هناك مثل يقول، 'يقتل القتيل ويمشي في جنازته.' عندما تذهب إلى هناك، ستكون كذلك." وانطلقت الضحكات منا غصبًا، غير قادرين على كبح جِماحها.

أومأت برأسي مع الفكرة التي سرت في ذهني، إدراكًا للخطأ الفادح الذي قد أسير إليه.

توجهت بالسؤال إلى يزن: "متى سنعود إلى المنزل؟" قال يزن، "عندما يحل الليل." ثمة الحكمة في كلامه، فها نحن ننتظر غطاء الظلام ليكون صديقنا. وبذلك، اتفقنا، واستقرينا في أماكننا، في انتظار الليل بكل ما يحمله من خفاء.

ماسا:

وقفت هناك، جسدي ينضح بالقوة أمام أمي وأختي الصغيرة، ولكن في داخلي كنت ممزقة، أحمل عبئًا لا يقدر حتى الجبال على تحمله.

من بعيد، لاحظت تجمع الشرطة والأمن، يملأون المكان بالضجيج والحركة، ومن ثم سمعتهم ينادون باسمي "ماسا علام"، صدى الاسم بدا وكأنه جرس القدر. ترددت لحظات قبل أن أجيب: "أنا."

اقتربوا مني، ملامحهم جدية لكن نبرتهم كانت مطمئنة، "لا تخافي، فقط هناك بعض الأمور التي نود الاستفسار عنها"، التفت نحو أمي، وقلبي تقطع لرؤية القلق يغمر ملامحها. أخبرتهم أنّني مستعدة للإجابة عن استفساراتهم. أصرّوا أن أرافقهم، وقفت والدتي معارضة لفكرة أن أذهب لوحدي، لكن الضباط طمأنوها ووعدوها بأني سأعود بأمان.

وافقتها على مضض وتبعتهم إلى السيارة، في طريقي إلى مركز لم أطأه من قبل.

في المركز، جلست وجهًا لوجه مع مُحقق.

شرحت له القصة بتفاصيلها دون أن أذكر أن والدي كان يحمل سكينًا، وأني رأيت في عينيه نية قتلي، خفت عليه، فقلت للمحقق بأنه كان يريد فقط إعادتي إلى المنزل.

عندما سألني عن الأشخاص المقنعين، جاء الجواب سريعاً وببراءة: لا أعرف. وعندما ألمح بأنهم جاءوا لينقذوني، تلعثمت، قلت أن والدي كان يمسكني بقوة فظهر شخص وتصدى له.

المحقق سألني برفق وألحّ: "ماسا، لا تخافي، تحدثي بصدق."

أكدت له أني أفعل، لكن والدي كان يحمل سكينًا، هنا انتابني التوتر.

أخبروني بوجود دماء على السكين وضغطوا لمعرفة الحقيقة.

كشفت أخيرًا أن السكين كان موجهًا نحوي لكن أحد الأشخاص المقنعين حماني وأصيب بدلاً مني.

لم أكن أكاذب، لكن القصة كان لها أكثر من وجه.

يمكن أن تكون تلك الأحداث قد وقعت بالصدفة، أو أنهم كانوا هناك لهدف معين.

خرجت من الغرفة، والأفكار تصارع في رأسي.

سمعت حواراً بين الضباط عن رصاصة من مسدس تابع لعصابة خطيرة، الغموض يزداد.

عاد بي أحد الضباط إلى المستشفى، دخلت لأرى وجه أمي وأفكر في كل ما حدث، والدموع تنهمر فوق خدودي، كيف وصل بي الحال إلى هذا.

كانت الانتظارات هي الأثقل بين كل الأحمال؛ تلك اللحظات التي تحبس فيها الزفير بانتظار خروج طبيب يحمل أخبارًا تتنفس عبرها الصعداء. ها هي أمي وأختي جهينة بجانبي، نشارك الصمت ونحتسي قلق الثواني. كان كل ما في الأمر، كما كان دائمًا، أن تتلقى الإرشادات ونعقدها على مَنْ تبقى له سحابة من الحنان في قلوبنا، والدي.

كان الطبيب يُقدّم توجيهاته حينما هَلَّتْ روان بشمس صداقتها، مُنيرةً الغمام الذي علا وجهي.

ركضت نحوها وعانقتها كما يعانق الشاطئ موجته الهاربة. أحنيت رأسي على كتفها وتركت دموعي تُغسل بعضاً من تراب المصاب. برقة أمل، همست روان كلماتها المُهدئة، "لا تقلقي يا ماسا، كل شيء سيكون بخير."

لقد كانت تلك المواساة الّتي جاءت بتوقيتها الحكيم؛ حين تعجز الكلمات والوقت عن تقديم العزاء، يكون الصمت والحضور هما الدواء. وافقت روحي على حكمة روان، فكان الغد هو الموعد المنتظر لتفريغ ما أثقل القلب واستوطن الذاكرة.

جلبتني روان إلى الكرسي، سلّمت على ذويّ وأحضرت لي المياه كمن يقدم جرعة حياة. جلست بجانبي، قوتي الهادئة وسط ركام الهموم. في حضورها، كنت أشعر بأنني أحوز قطعة من الأمان؛ كهواء نقي يشق عباب المعاناة ليملأ الرئتين بشيء من الاطمئنان.

روان، صديقتي التي لم تكتفِ بالبقاء صديقة للمواقف الجميلة فحسب، وإنما صمدت كنسيم عليل في أُفق الأيام العصيبة. لدي العديد من الأصدقاء، لكن روان تُشبه الندرة في كونها حقيقية حتى في الغياب، لا يُماثلها في الوجود أحد.

عيد:

تسلل الإرهاق إلى كل عضو في جسدي، فبعد اليوم المجهد الذي قضيته برفقة عمار ويزن، شعرت بثقل يجتاحني وأنا أخطو باتجاه المنزل.

كان الوداع عابرًا عند باب عمار، حيث انفصل كل منا في طريقه، وانطلقت أنا نحو الراحة التي كانت تعدني بها جدران بيتي.

عند الوصول، استقبلتني أمي بوجهها المُشرق ومشاعر الطمأنينة التي تحملها تلك الابتسامة.

قاطَع والدي ذلك الجو المريح بسؤاله المحمّل بالفضول والقلق: "هل علمت ماذا حدث في الأمس؟"

لم أُظهر دهشتي، إلا أنّ قلبي كاد يقف من الخوف. "لا، ماذا حدث؟" سألته حاولت أن أُخفي الاضطراب الذي يعتمل داخلي.

وبينما كان يُطلعني على وقائع إطلاق النار الذي حدث في الحي، ظللت أُمثّل أمامه بأن الأمر جديد عليّ، وأنا المُنفّذ الحقيقي لتلك الجريمة.

اهتزت روحي حينما استرسل والدي في التعبير عن قلقه، ودّ لو أن أُبدي احترازًا في تحركاتي.

أيّ احترازٍ يُراد مني وأنا من سحب الزناد؟ ولكن، أومأتُ متظاهرًا بالموافقة، واستُأذنت للخلود إلى غرفتي، حيث استشعرت بوطأة الكذب والسر الذي أحمله.

فكرت بتوتر: أنا لستُ نادمًا. من يُقدم على المساس بماسا، حبيبتي، ولو بشعرة، فسوف أجعل منه عبرة. غير أنني توارىتُ مع الشرّ في لحظة جنون وغضب، لا يعلم بها إلا رفيقاي عمار ويزن.

طغى القلق عليّ وأنا أتأمل القماش الذي زُرع في يدي كدلالة على تلك الليلة المشؤومة. لو لم أكن هناك، يا لمنحى القصة الذي كان سيتشابك بخيوط ظروف أخرى، لو توغلت يد والد ماسا الحادة في جسدها الرقيق.

هرعت لاكتشاف النقع الذي كان يُخفيه الكم، بينما ملأتني رهبة الاسم والتاريخ المدوّنين بالخط الصغير، شاهدان على جرمي الأخرس.

عندما وجدت نفسي في المطبخ ووجه أمي يتساءل ببراءة عن يومي، لم أستطع إلا أن أمنحها الجواب الذي يُشبه الحقيقة: "جميل جدًا."

كانت عتبة الغرفة توشك أن تحجب عني أعين العالم حين أطلقت أمي سؤالها اللغم: "عيد، ما هذه الورقتان؟؟، لقد رأيتهم على سريرك!"

الحلقة الخامسة عشر:

ليلة الأحداث

ماسا:

عندما وصل موعد خروج أبي من المستشفى، كانت مشاعر متضاربة تمزق قلبي؛ الارتياح لشفائه يصطدم بالذكريات المؤلمة لهذه الحادثة. دفعنا التكاليف المتراكمة وبالكاد حزمنا أنفُسنا، جاهزين لمرافقته إلى المنزل. كان الأمر مرهقًا بما يكفي، مع معاناتنا لرفع الكرسي المتحرك إلى السيارة وإنزاله، فكيف بأثقال القلوب والعقول؟

يا والدي، ما الذي دفعك لتقوم بهذه الفعلة؟ هل هو اليأس أم وهم غابر؟ كلما عاودتني ذكرى تلك اللحظة التي كُنت فيها بقرب الخطر، تلك اللمحة التي أمسكتَ فيها السكين...

كيف لرجل مثلك، كيف لوالدي، أن يسعى لإنهاء حياة ابنته؟ ينتفض جسدي برجفة غريبة عندما أفكر في ذلك. هل انقلبت عاطفة الأبوة إلى استعداء؟

وصلنا إلى بيتنا، حيث دخلنا جميعًا: أنا، أمي، أختي الصغيرة، ووالدي. نُعاني من الإنهاك ونُظهره على محيانا، وتترك الصمت تصدعات في جدران البيت.

بينما كُنت على عتبة غرفتي، صدح صوت والدي طالبًا حديثًا خاصًا معي.

قادتني دهشتي وأنا أدفع كرسيه المتحرك إلى غرفته، وتقابلنا الأسرار ونحن نُغلق الباب خلفنا.

هناك، أمام حاجز من الخصوصية، بدأ يُسكب اعتذاراته كما تُسكب العاطفة من جرح لم يُعالج.

"كنت ستقتلني"، لم أجد سوى هذه الكلمات تنفلت من شفتي. فركضت الدموع على وجنتيه وتحشرجت أنفاسه.

"سامحيني يا بنتي،" صرخت روحه مستجدية الصفح والنسيان.

أُسكت صوت ألمي، وبينما مسحت دموعه، أعربتُ عن الغفران بلا تردد، "لا تعتذر، أسامحك، فأنا ابنتك." ومع رجفة الفضول، وددتُ معرفة ما يُقلقه.

"المخدرات،" همست بحرقة، بعد أن اعترف بإدمانه وقراره القاطع للانفكاك عن تلك الوحلة.

وأمام هذا الإعلان المُزلزل، تعقدت ملامحي بصدمة.

لماذا اخترتَ هذا الطريق الوعر يا أبي؟ وأمام عزمه على ترك هذه العادة، وعى قلبي بأن كل المشقة التي عانيناها كعائلة نبعت من سوء الاختيارات.

"ارجوك ابتعد عنها"، ناشدته بتمنيات الحياة الهانئة، وبيد أب يعد بالقطع ظهرت الرجاء والأمل.

في هذه الأثناء، دخلت أمي وأختي الصغيرة، حيث وجدتنا دموعنا تتلألأ كخرز منثور، فاقتربت لتقوي عرانا بالحب والأسرة، وضمتني إلى صدرها كملجأ يُعيد التعريف بالأمان.

وكأني في تلك الأحضان، شُطِب كل ما عكر من صفاء هذا العالـم.

عيد:

استعدت نفسي للدخول إلى الغرفة، لكنني فوجئت بصوت أمي يقطع حبل أفكاري. استدرت لأراها تقف هناك، تمسك بيدها ورقتين وتنظر إليّ بنظرات تملؤها الاستفهامات والحيرة.

"عيد، وجدت الورقتين هاتين على سريرك"، قالتها بهدوء، وهي تمد يدها نحوي. كانت عيناي تخفي أسراراً لم أكن أرغب في أن يطلع عليها أحد.

بيدي الخاطفتين، أمسكت الورقتين كأنهما كنزٌ ثمين، وأنا أحاول أن أظهر البرودة والاطمئنان. "إنهما لصديقي، نسيهما هنا عندما كان في الزيارة"، تمتمت بها وأنا أغمغم قليلاً، محاولاً إخفاء توتري.

"إذًا تأكد أن تعيدهما له عندما تراه"، حثتني أمي بلهجة تتسم بالرعاية والحرص.

"بالتأكيد، سأفعل"، أجبتها بسرعة، وبلمح البصر وأنا أدخل الغرفة، شعرت بأن قلبي يدق بقوة من شدة القلق. بمجرد أن أغلقت باب غرفتي خلفي، مضيت نحو محفظتي بخطوات متسارعة، فتحتها بيدي المرتجفة قليلاً واحتضنت الورقتين داخلها. الآن هما في مكانٍ أكثر أماناً، بعيداً عن أعين الفضوليين، بعيداً عن أسئلة قد تقود إلى أسرار لا يمكن البوح بها.

تمددت على السرير، جسدي يستسلم للإرهاق كما لو كان قد خاض معركة شرسة. مرهقٌ أنا حتى النخاع، والتعب يلفني كعباءة ثقيلة. أرفع نظري نحو السقف، العالم حولي صامت، لكن ذكريات الصرخات والدموع تصدح في ذهني.

أعيد في خيالي صورة ماسا وهي تبكي، تلك اللحظة القاسية حينما أطلقت النار على والدها. تلك الذكرى تطاردني، تخترق سكون الليل كشظايا حادة، وتجسد لوعة الندم التي تثقل صدري.

"آه.."، أتنهد بثقل، الندم يعصر قلبي. لقد وضعت نفسي في مأزق لا تحسد عليه النفوس، وفررت تاركًا ورائي صدى الفوضى والألم.

كان دافعي نبيل، أو هكذا أخبرت نفسي. الرغبة في حمايتك يا ماسا، أن تبقي بعيدة عن كل أذى، لم أتحمل فكرة أن يمسك أحد بسوء. هذا الحب الذي يتغلغل في الأعماق، يجبر القلب على تجاوز الحدود والتورط في قرارات قد لا تُحمد عواقبها.

إن قلبي لم يقوَ على تحمل فكرة أن يمسك سوء، يا محور حياتي، يا من اخترت أغلى ما لدي لأحميها. لكن برغم كل الغايات المحمودة، بقي الفعل يُلقي بظلاله المظلمة على روحي، وتبقى السؤال يتردد: هل كان لا بد من ذلك؟ هل كان السعي للحماية يتطلب الإضرار بآخرين؟ الغرفة هادئة، لكن العاصفة في داخلي تشتد.

روان:

كنت جالسة في المنزل، يلتف حولي الصمت الثقيل، لكنني كنت غارقة في بحر الحزن الذي يجتاحني بسبب ما حلّ بصديقتي الغالية ماسا. كانت الأحداث التي مرت بها قاسية جداً، لا يمكن للعقل أن يستوعبها. ماسا، ذات الوجه الجميل الذي كثيرا ما كان يضفي البهجة على المكان، ليس من العدل أن ترى هذا الكم من الألم والحزن.

أسئلة كثيرة بدأت تدور في رأسي وأنا أحدق في اللاشيء.

"كيف يمكن لكل تلك الأمور أن تكون متعلقة بصديقتي ماسا؟ إطلاق نار، عصابة، خطر يحوم حولها، يا إلهي!"

دون تفكير، أمسكت الهاتف واتصلت بها على الفور لأطمئن عليها. "كيف حالك الآن، يا حبيبتي؟" كان سؤالي مليء بالقلق والاهتمام. وإلى مسامعي جاء صوتها، يغمرني بالهدوء، "أنا بخير يا روحي، لا تقلقي."

أنفاسي تعود إلى مجراها بعد أن علمت أن ماسا بخير، قوتها أدهشتني. عبر التلفون أخبرتها: "لما لا نلتقي لنتحدث قليلاً؟" "متى تريدين، أنا جاهزة"، وعلى هذه الدعوة المفتوحة ألبست معطفي وأسرعت نحو منزل صديقتي المحبوبة.

عندما وصلت، كان الترحيب حاراً من والدتها التي أحبها جداً. دخلت إلى غرفة ماسا حيث وجدتها أمام المرآة، لا تزال تحاول أن تجد بعض الضياء وسط الغمام. "رغم كل شيء، ما زلتِ تتأكدين من جمالك يا ماسا"، قلتُها وأنا أبتسم.

جاءت ماسا وعانقتني بحرارة، وجلست بجانبي. بدأت تسرد لي كل ما حدث، وما كان مني إلا أن أصغي، مشاعر الصدمة تتراكم في داخلي. "مقنعون انتظروا أسفل المبنى؟، هل يعقل أن كل هذا كان مصادفة؟"

يرتفع صوتي والتأكيد يتخلل كلماتي. "ليس صدفة، ماسا. لا أحد يخاطر بحياته لمجرد الصدفة.". رأيت على وجه ماسا ملامح الصدمة تلوح مع كل سؤال أطرحه. تستيقظ أفكار جديدة داخلها.

"ربما يكون قريباً منك، ماسا. من يفعل ما فعل إن لم يكن له سبب قوي يدفعه؟" أتابع كلماتي، والنار تشتعل في عيني ماسا. نتبادل النظرات والأسئلة.

ماسا تنهض بشيء من الحماسة، "هناك وجهة نظر في كلامك روان، ولكن من يمكنه أن يفعل ذلك؟ كيف عرف بما سيحدث؟ هذا ما يجول في خاطري."

وأنا، أسند رأسي إلى كفي متأملة، أقول لها: "لا أدري يا ماسا، هذا شيء معقد. ومن الواضح أنهم كانوا مستعدين تماماً لتلك اللحظة ولم يأتوا بالصدفة."

استمعت إلى كلمات ماسا وهي تقول بتحدٍ وإصرار غريبين، "مستحيل يا روان، مستحيل. ربما كانت كل هذه الأحداث تحكمها الصدفة، صدفة من السماء أرسلت هذه العصابة في ذلك الوقت المناسب لتنقذني من يد والدي الذي كان مستعداً لإنهاء حياتي بتلك السكين."

استغرابي من كلامها دفعني لأسألها بعمق، وأنا أبحث في عيونها المتسائلة، "بعد أن حمى تلك الضربة عنك، هل اكتفى بذلك؟"

هنا صمتت ماسا للحظة، وكأنما تسترجع شريط الأحداث المبهم، ثم قالت بصوتٍ مرتجف، "لا، لقد أنزله أرضاً وبدأ ضربه... وبعد أن تقطع حديثها للحظات وكأنها تكافح لاستيعاب الحقيقة المرة، انفلت منها، "بدأ ضربه بشدة، وبدا كأنه أحد أعدائه."

سؤالي التالي جاء مدفوعاً بنبرة استفهامات متلاحقة، "لماذا أطلق النار عليه؟" أجابتني ببساطة، كأنها تحكي تفاصيل قد حُفرت في ذاكرتها، "لأنه رأى والدي يهجم علي."

لكن كلماتها تلك لم تقنعني كلياً، فأضفت بسرعة وكأني أسعى لكشف اللغز، "هل من المنطقي أن يطلق النار ويجذب الأنظار؟ لو كانت فعلاً عصابة لكانت قد أتقنت فن التخفي والهروب، لكن الفعل الذي فعله هذا الشخص عندما أطلق النار، يبدو فعلاً غير منطقي وغبي إلى حد ما."

توقف كلامي فجأة عندما لاحظت أن ماسا غارقة في بحر من التفكير، صمتها مُحمل بأسئلة وشكوك لم تكن تراودها من قبل. نظراتها تتنقل بين الشك ومحاولة استيعاب الواقع، وكأنها تنحت في جدار الأمر الواقع بحثاً عن إجابات قد تكون خفية. قد يصبح الصمت في بعض الأحيان أعلى صوت حيث تغدو الأفكار أقوى من أي كلمات يمكن أن تُقال.

شعرت بالدهشة وأنا أراقب ماسا تقفز فجأة وتتوجه إلى صندوق في غرفتها، كانت تحركاتها محملة بشيء من الحزم وكأنها تبحث عن إجابة بين أغراضها الشخصية. فتحت الصندوق بيد مرتجفة وأخرجت شيئًا صغيرًا ومدته إليّ وهي تقول "انظري ما وجدتُ فوق وسادتي بعد أن عدنا من المستشفى."

أخذتُ الورقة من يدها والتباس يكتنف ملامحي، ثم بدأت أدرس الخطوط المكتوبة عليها "9/1"، "9:22"، وكلمة "ندبة". كانت هذه الورقة لُغزًا جديدًا، وتساؤلات جديدة زاحمت عقلي.

رفعتُ نظري إلى ماسا وسألتها بحيرة "ما هذا؟" وجوابها جاء على قدر حيرتي "والله لا أعلم، لكن كيف جاءت إلى هنا؟" أجبتُ بشكل شبه لاإرادي "لما لا تسألي والدتك؟"

كان جوابها يحمل نبرة إحباط "سألتها وقالت لا تعلم شيء."

لم أتوقف عند هذا الحد "وماذا عن أختك؟" ولكن ماسا أكدت "يا روان، جميعنا كنا في المستشفى، ولم يكن هناك أحد في المنزل." ملامح الصدمة التي ظهرت على وجهي انعكست على صوتي حين قلت لها "احتفظي بها ولا تؤرّقي بالك، قد تكون قد جاءت بالخطأ أو ربما نسيتِها."

ألقت ماسا نظرة تفكير عميق للحظة ثم قالت "من الممكن أن أختي الصغيرة وضعتها قبل أن نخرج ونسيتها قبل أن تحدث تلك المشكلة." ثم عادت لتخبّئ الورقة في الصندوق.

قبل أن أغادر، حاولت تسكين قلقها "لا تحزني نفسك الآن، الأهم أن تكوني بخير." وقفت لأذهب قائلة "أنا ذاهبة الآن إلى منزلي."

ماسا حاولت احتجازي بعبارة مليئة بالحزن "ابقي عندي" لكنني أجبتها بواقعية "والله لا يمكنني أن أتأخر"، وضممتها بحرارة وودعتها. كل خطوة أبعدتني عن منزل ماسا، لكن الألغاز والأسئلة التي خلفتها الورقة ظلت تصحبني، محملة بشعور غامض بأن الأمور بدأت تتكشف رويدًا رويدًا، وربما سيكتمل اللغز قريبًا.

الحلقة السادسة عشر:

خيوط الذاكرة

عيد:

ها أنا عيد، واقف على عتبات القدر، بوابة الجامعة تتأرجح أمامي ما بين الحلم والحقيقة. يطل الفجر بوعوده، وغدًا هو اليوم الذي سأخط بداية مسيرتي الجامعية. تتراود إلى ذهني تساؤلات تائهة؛ هل ستكون التجربة باذخة كما أحلم؟ أشعر بأنني على أعتاب حياة جديدة، تقطع حبالها مع ماض دفين، يتوارى خلف ستائر النسيان.

لكن... هناك ماسا.

أه، ماسا! هي ليست مجرد صدى من الماضي، بل هي نبض الحاضر الذي يغمر كل زاوية من زوايا روحي. لا يمكنني إغفال ذكراها، فمن العسير عليَّ نسيانها. إقامتها القريبة من منزلي تجعل الأمل يتجدد في الأفق بكل صباح، يبزغ بأمل أن أراها مجددًا.

ليلة الأمس، تركتُ غرفتي لأشارك في حلقة العائلة؛ حيث الحوار يدور حول أفق الجامعة وما ينبغي وما يجدر تجنبه. التحذيرات، النصائح، كلمات تكاد تكون مملة لمن هو مشغول الفكر بعالم آخر تسكنه ماسا وحدها. وبتأفف، عدت أدراجي لغرفتي... حيث تلك الشاشة الصغيرة التي تفصل بيني وبين عالمها.

أخذت هاتفي، والقلب يخفق. تتصفح أصابعي صفحتها الخاصة باشتياق، تعيد خليها بوتيرة متسارعة في وجداني. "ما الذي فعلتيه بي، يا ماسا؟" تتسرب السؤال من بين أنفاسي المضطربة. حبي لها لا يعرف منطقاً ولا يهتدي بنور خِبرة. خُذلان منطقي كان الخلود إلى النوم، وأنا لا أزال أحتضن الهاتف، يلفني الليل، وأنا غارق في خُمار شوقي إلى ماسا.

اخترق صوت الهاتف صمت الفجر الهادئ، إنه يزن على الطرف الآخر من الخط، مُنبئًا ببزوغ صباح جديد. "هل لا تزال في عالم الأحلام؟" يسأل بنبرة ملؤها التحفز.

"أجل"، قلت محاولاً تجميع شتات نومي.

"هيَّا إلى الجامعة!" كان تحفيزه بمثابة إشارة لتبدأ رحلتي. اندفعت محملاً بحماس البدايات. انتقيت أجمل الملابس دون تردد، في محاولة لأبدو بأبهى حلة في يومي الأول بالجامعة. خرجت من غرفتي لأجد أمي في انتظاري، ودّعتها بقلب ممتن وخطواتي تتسارع نحو المجهول.

بطريقي للباص، تسارعت دقات قلبي بتوقع ما يحمله لي هذا اليوم. كان يزن وعمار في الانتظار. فاستقبلتهم بسخرية لطيفة: "ما هذا الصباح الذي يجعلني أتصبح بتلك الأوجه!".

نظراتهم الغريبة كانت متبوعة بضحكات معدية.

الرحلة إلى الجامعة شعرت بأنها أبدية، تمطى الطريق وتمايل حتى بدا وكأننا سنصل بعد حقبة زمنية وليس في ساعات الصباح الأولى. دهشتنا بضخامة الجامعة كانت بلاغة صمت لم يخترقها سوى همسات الإعجاب والتوقعات.

اكتشفنا أطراف الجامعة معًا، تقلبنا بين أروقتها وقاعاتها.

بعد جولة الاستطلاع، وصلنا أخيرًا للمركز الذي سنستلم منه برامجنا الدراسية. كل شيء سار كما خطط له حتى هذه اللحظة. التحليق القصير بين سطور المستقبل أعقبه توجهنا إلى مقهى الجامعة، حيث الهدوء والأحاديث المستفيضة.

يزن، بلا مقدمات وبنبرة مفاجئة، كسر الصمت: "لم يشاء القدر أن يكون وليد معنا، لكن انظروا من هناك..."

وكأنما الزمان والمكان تواطؤا ليرسما أقدار البشر بخيوط غير مرئية، التفتُّ فجأة وإذا باللحظة تتجسد أمامي، ماسا هناك، تشرق في هيئتها، تعكس حقيقة أحلامي الموشّى بها حضورها. قلبي كاد يقفز من صدري ليطير إليها؛ لكنه ظل معلقًا بين الحيرة والوجد...

"أجل! إنها ماسا" تُسارع شفاهي بالنطق بدهشة مختلطة بالرهبة.

تبدت الأقدار وكأنها تهمس بوجوب أن لا يفترق طريقي عن طريقها. يا له من يوم جميل؛ عندما يأتي لك اليوم بما لم يكن في حسبانك!

لم أكن أملك الصبر، فالتفت إلى يزن وعمار مستعجلاً: "كيف يمكنني أن أبادر بالحديث إليها؟ لا بُدَّ لي من الخطو الآن!"

عمار، بوجهه المستبشر دائمًا، حثني على ترك الأمور لعبث الصدف: "يا عيد، لديك الكثير من الأيام. سيأتي يوم تتسنى فيه الفرصة بتلقائية".

غير أنني كنت متحفزًا ولم استطع الانتظار. وقفت، متجهًا نحوها بخطوات ثابتة، لكن عمار أوقفني: "هل أنت متهور؟ التحدث إليها من اليوم الأول قد لا يكون من الحكمة."

أشرت إليه، محاولاً فسح المجال لموقفي: "لكنها كانت معنا في المعهد، ألم تذكر؟"

"هل أنت واثق أنها تعرفك حقًّا؟" كان سؤاله بمثابة صفعة لحماسي.

أجبته، وأنا أحاول تأكيد ذكرى ليتها تفي بالغرض:

"عندما خرجت من المعهد، منحتني ابتسامة..."

ضحك خفيفًا، جعلني أتساءل: "هل كانت تلك الابتسامة كافية؟"

واصل عمار نصحه، وأملت حجته في نفسي: "إذا ذهبت الآن، قد تكون خطوة غير موفقة، ستضعف احتمالاتك..."

ترسخت كلماته في ذهني، فأخذت مكاني مجددًا بين يزن وعمار، أغوص في بحر أفكاري المتلاطم، يعتصرني التوتر، لكن بقي حلم لقائها يتراقص بين جفوني المضطربة.

ماسا:

تتحول الأقدار على نحو لا يمكن توقعه، فتجمع بين السمات الجميلة والتحديات في أنسجة يوم واحد. صباح زاخر بالإمكانات يُعلن بداية مرحلة جديدة من الحياة؛ الجامعة، تلك العالم المستجد الذي يفترض أن يكون موطنًا للأحلام وميدانًا للطموحات.

حقًا، ثمة شعور مضطرب يعتريني؛ فلقد صرت طالبة في جامعة لم تكن من اختياري الأول، لكن، أليس عليَّ منحها فرصة؟ ومع كل خطوة تقودني وروان نحوها، أحاول أن أزجي الأمل في هذه الصفحة الجديدة من رحلتي.

ما إنْ وطأتْ أقدامنا أرضية الجامعة، أدركت أنَّ هناك جمالاً خفيًا بين جدرانها تجلى لي.

نعـم، ثمة جمال خلاب ينبغي أن يُكتشف، وربما طموحي الذي لا يعترف بالحدود يجعلني دائمًا أبحث عن المزيد .

بينما كنا نخوض في حديث ممتد، أنا وروان، صوب المقهى بعد استكشافنا للجامعة، رأيت في زاوية العين شخصيات مألوفة. لمحة عابرة كفيلة بأن تضع الأسئلة على شفتي: "هل تذكرينهم؟" قلت لروان.

أومأت روان بتأكيد قوي، فكانوا رفاق الأمس في المعهد . وأردفت: "الآن، أشعر بالانتماء أكثر"، وكان ضحكي يهدف إلى إضفاء روح التفاؤل على اللحظة.

"هل تعرفينهم جيدًا؟" سؤال روان كان بمثابة جس نبض.

أجبتها بتلقائية: "لا، لا أعرفهم جيدًا... من بعيد فقط." فكانت ذاكرتي أقل وضوحًا من اللازم، حتى اسمائهم غمرتها عتمة النسيان. غير أنّ شريطًا من الذكريات عاد حين تذكرت، "أليس هو من رأيت في السوق قبل فترة؟ كان يحمل الكتب..."

"عيد؟" قالتها روان بينما وجهها متسائل.

"عيد، هل هذا اسمه؟" غارقة في التفكير، والذكريات كان لها الغلبة. "لم نقضِ وقتًا كافيًا في المعهد لأتذكر."

"كنت معه في العديد من القاعات أثناء الدراسة في المعهد"، أكدت روان، ولم تكن الأحرف مجرد رموز، بل مقدمة للحكايا.

"وكيف حُفِظَ اسمه في ذاكرتك إلى الآن؟"

غمزتُ لها مازحة، محيطة سؤالي بابتسامة واسعة.

روان ضحكت ضحكة ملؤها البراءة: "لا لا لا، ليس كما تعتقدين أبدًا." وأوضحت ضاحكة: "ذاكرتي قوية بما يكفي لأتذكر أسماء الأشخاص بعكسك!" فامتلأ الهواء حولنا بالضحكات التي بدت كأنها ترسم على اليوم مزيدًا من الجمال.

الحلقة السابعة عشر:

تشابك القدر

روان:

كنت جالسة في المنزل، أعيد ترتيب الذكريات المتعلقة بيومي الأول في الجامعة، هناك روعة في البدايات التي لا يُمكن تفسيرها، والتي تغمر القلب بأمل عميق بأن كل شيء سيكون بخير، مثل ذلك اليوم، كل يوم.

في خضم أفكاري، داهمني صوت أمي تنادي من الخارج. تركت غرفتي مسرعة لأجدها، كانت تحتاج المساعدة في أعمال المنزل.

وبينما أنهمك في المساعدة، تسللت إلى ذهني تلك التفاصيل التي شاركتها معي ماسا، قصتها المليئة بالغموض والأحداث المتلاحقة.

ثلاثة أشخاص مقنعين، وقت محدد، وسكين، وحادثة دامية أدت إلى جرح يد أحدهم الذي كان يحاول حمايتها من والدها.

هذه التفاصيل المُربكة لم تتوقف عن الرقص بعقلي، لا سيما الورقة التي طلبت مني ماسا قراءتها؛ تاريخ، وقت، وكلمة "ندبة".

أسقطت ما كان في يدي وجلست على الأريكة أفكر، ندبة وضربة السكين...

ثم أدركت معنى ذلك، ربما يحمل أحد المقنعين ندبة على يده تربطه بهذه الحادثة. لكن الوقت والتاريخ على الورقة، ما علاقتهم بهذا الأمر؟ هذه الألغاز التي تتكشف أمامي كانت تكاد تفجر عقلي بما سوف يحمله المستقبل من مفاجآت. يا إلهي، ماذا يمكن أن يحدث بعد كل هذا؟

وجدت نفسي تائهة في بحر من الأفكار والاحتمالات، وأنا مستلقية على تلك الأريكة، محاولة ربط الأحداث ببعضها بعضاً.

ماسا قد شاركتني الكثير، لكن يبدو أن بعض القطع مفقودة.

تذكرت الورقة من جديد،

'1/9'، '9:22'، 'ندبة'.

فكرت، هل يمكن أن تكون هذه الندبة دلالة أو علامة؟ وهل الوقت والتاريخ يشيران لحادث وشيك أو ربما موعد مهم؟ الغموض يحيط بي، وكأنني وسط لوحة مظلمة وعليّ البحث عن الضوء.

ماسا:

كنت جالسة هناك، في غرفة المعيشة، أرضي أختي الصغيرة بلعبة العرائس التي تحبها كثيراً. ضحكاتها العفوية كانت ترن في الأرجاء، تملأ الفراغات بين الأثاث والجدران. "جميلتي الصغيرة"، كنت ألقبها وأمسك يدها الصغيرة بحنان شديد. كنت أرى في عيونها شعلة الحياة البريئة، البعيدة عن متاعب الكبار وأسرارهم الثقيلة.

في خضم هذه اللحظات، اهتز هاتفي الموضوع جانبًا على وقع اتصال مفاجئ. روان، صديقتي المقربة، كانت على الخط الآخر. "نعم حبيبتي روان؟" كانت نبرة صوتي تمتزج بلطف مع وقع ضحكات أختي.

"أحتاج إلى رؤيتك الآن"، كانت كلماتها تحمل إلحاحًا غريباً. وافقت على مضض، محاولة إخفاء قلقي أمام أختي. "سأكون هناك".

في المقهى حيث التقينا، كانت الأجواء أكثر هدوءاً من صخب بيتي، وكانت روان تصب نظرها عليّ بجدية غير معتادة. بدأت تقص عليّ بعض الأسئلة المتعلقة بالحادثة التي مررت بها، تلك التي وقعت فيها ضحية وكادت تنهي حياتي لولا تدخل شخص جريء ضحى بدمه لينقذني.

"أُصيب في زنده؟" سألت. "نعم، في زنده"، أجبت، متجاوزة الألم القديم الذي خزنته في ثنايا ذاكرتي.

"وماذا سيبقى بعد التئام الجرح؟"، استكملت روان استفساراتها. صمتتُ للحظة، غير مدركة لمؤدى تساؤلاتها المحيرة. "جاوبي"، ألحت مجددًا.

"ندبة"، قلتها بضجر، لم أدرك حينها أن الحقيقة كانت تقترب من الكشف بنورها الساطع.

"وماذا كُتب على تلك الورقة التي وجدتِها قبل الحادث؟" برهة، بقيتُ مكاني، غير قادرة على ربط الأحداث. تهجساتي أخذت فجأة شكل واضح أمامي. "ند... ندبة!" وكأن الزمن توقف، وأصبحتُ على بيّنة من كشف اللغز الذي بدا فوق إدراكي.

الورقة، التي ظهرت لي قبل كل شيء، كانت تحمل التحذير أو ربما التنبؤ بما سيحدث. سكتت والصدمة تتزايد مع كل زفرة، بينما روان تراقبني بنظرة تكاد تكون خليطاً من القلق والإصرار على الغوص أعماق هذا اللغز الذي بات يربط مصائرنا. كيف سبقت الورقة الأحداث؟ وكأنها خريطة زمنية تُظهر أحجار الدومينو قبل أن تتساقط.

ومع كل ذلك الارتباك الذي ملأ فضاء ذهني، أعقبت الصدمة ذكرى مفاجئة.

رجعت بذاكرتي إلى الورقة، إلى الأرقام التي رأيتها منقوشة بخط رفيع، وكأنما تحمل رمزًا أو إشارة. نطقت، وصوتي كان يحمل وقع الاكتشاف: "هناك تواريخ محددة في الورقة، أتذكر أنها كانت في شهر I . . . "

روان التقطت الخيط، وكمن يحل لغزاً قالت بحماس: "أجل! ١/٩ . . . " وفجأة صمتت، وبدا عليها أن أفكارها تركض بسرعة تفوق قدرتها على النطق.

هززت رأسي معي تجاوب الأفكار. قلت لها إدراكًا ما انتابني: "إذن يمكن أن يحدث شيء في ذلك الوقت. . ." شعرت بكهرباء القلق تزحف خلال أوصالي، وبأننا ربما أمام معضلة زمنية لم نعهدها من قبل.

تبادلنا نظرات مشحونة بأحاسيس مختلطة، حملت بين طيّاتها الرهبة والتشويق. شيء ما كان يختلج في الأفق، يلوح بعلامات يصعب تفسيرها. فهل هي مجرد بشارة بمستقبل نأمله، أو تحذير من قدر سيأتي دون دعوة؟

عيد:

دخلت إلى المنزل وكأن غيمة من الفرح تحوم حولي، ماسا انتقلت للدراسة في الجامعة نفسها التي أتواجد بها، شيء في داخلي يقول إن القدر يلعب لعبته ليربط بيننا بخيوط غير مرئية. وإن لم يكن هو، فربما هو التقارب المكاني البسيط الذي يعمل على تقوية التواصل غير المباشر بيننا. علاقتينا التي قد تكون إحدى صورة الاعتمادية المتبادلة في علم النفس، حيث الأحداث التي تحدث لها تركت أثرًا في نفسيتي وبالعكس. أمي، التي لم ترني مسرورًا إلى هذا الحد منذ مضت أعوام، سألتني فور رؤية ابتسامتي المشرقة: "ماذا بك يا عيد، ما الذي يجعلك مبتسمًا هكذا؟" هناك نظرة من الفهم ومسحة حب على وجهها، تظهر مدى قربها العاطفي مني.

"الجامعة جميلة جداً"، قلتها بابتسامة عريضة، متفاديًا الدخول في تفسيرات قد تشوش على بسيط اللحظات الجميلة التي أعيشها.

أمي، بحكمة الأمهات، قالت: "وفي المستقبل ستصبح أجمل"، لتعزيز لي أهمية التفكير الإيجابي ومدى تأثيره على التفاؤل بمستقبل أمل.

بكلمة واحدة "إن شاء الله"، أعلنت موافقتي وإيماني بكلامها. ثم انسحبت إلى غرفتي، أبدلت ملابسي مستلقيًا على السرير أنظر إلى السقف وأنا مبتسم، غارقًا في أفكاري الخاصة ولا شيء يهم. قد أرى نفسي مجنونًا بها، لكن في التحليل النفسي، ربما هذا مجرد تجلي للاندماج العاطفي، حيث الفرح والانجذاب يصبحان مدمجين في شخصية الإنسان.

ثـم جاء الاتصال المفاجئ من عمار، وأنا الذي كنت أفكـر في عالـمٍ آخر. "وصلت إلى البيت؟" سألني بنبرة توحي بالضرورة.

"أجل، وصلت"، أجبته بإيجاز.

"إذا هيا اخرج سنلتقي عند الحديقة." كان يطلب مني عودة إلى العالـم الحقيقي، وأنا الذي كنت أفضل لو بقيت في سكون غرفتي.

"أحمق يا رجل؟!" كنت أحاول الدفاع عن لحظات الهدوء المسروقة، لكنه أصرّ: "هناك شيء يجب أن نتحدث به، أنا وأنت ويزن."

"سآتي، أه منكم..." الاستسلام لمكالمة الواجب الصداقة، حتى وإن كانت النفس تميل للراحة والتأمل. وفي داخلي كانت تلك الشكاوى الداخلية ملاذي حيث أقول "ماذا يريدون؟ يالهم من متعبين..."

لكن مع ذلك، ارتديت ملابسي وقلت لأمي إنني خارج. "إلى أين؟" الأمهات لا يفوتهن شيء. "سأرى أصدقائي قليلا"، كان جوابي المحفوف بالمسؤولية اتجاهها.

"لا تتأخر"، أوصتني بكلمات تحمل العناية والقلق معًا.

"لن أتأخر"، ولو أننا نعرف أن الوقت غالبا ما يتسلل من بين أيدينا حين يتعلق الأمر بلقاء الأحبة.

وفي طريقي إلى الحديقة، كنت أفكر فيما ستُخبئه لنا هذه المواجهة الصديقة، وما هي القصص التي ستُنسج بيننا هذه المرة.

الحلقة الثامنة عشر:

زفرة النار

في طريقي إلى الحديقة، حيث الليل بدأ ينشر ظلاله الهادئة، كنت أفكر في كل الأشياء التي أودّ أن أقوم بها. لم أتوقع أبداً أن ينقلب هذا السلام المعهود إلى ليلة مليئة بالأحداث الغريبة. عند وصولي، رأيت عمار ويزن ينتظرانني وكأنهما يحملان خبراً ثقيلاً. جلست أمامهم دون أن أتفوه بكلمة، أرقبهم بصمت، منتظراً أن يكسر أحدهم هدوء الليل بما يحملانه من أخبار.

"ماذا هناك؟" أخيراً كسرت الصمت بسؤال مرتجف، غامرني شعور أن ما سأسمعه لن يكون عابراً.

"والد يزن خرج من المنزل بيده سلاح العصابة"، قال عمار بصوت مكتوم.

شعرت بالصدمة تكتسح وجهي وقلبي يتسارع، "يا إلهي، ماذا؟" خرجت الكلمات من فمي قبل أن أصدق حقيقتها.

"ولـمَ يأخذه؟" سألت بلوعة، كنت أريد تفسيراً يهدئ من روعي.

يزن، بنبرة مرتعشة، قال "أتوقع أنهـم وضعوا والدي في تلك المهمة لمسك العصابة. وبظنه بصمات أحد العصابة بقت على ذلك السلاح".

"وماذا عن البصمات؟" سألت سريعاً، فقد بدأت أشعر أن التفاصيل هذه قد تكون مفتاح حل أو دخول مأزق.

هزّ يزن رأسه قائلاً "مسحت السلاح من أي بصمات".

نظرت إليهم وقلت "وهذا شيء جيد"، محاولاً بذلك إضفاء نسمة أمل وتفاؤل على الموقف العصيب.

لكن عمار، بنظرة ثاقبة، ردّ "لا أعلم، أشعر وكأن هناك مصيبة تنتظرنا".

حاولت أن أبعث فيهم بعض الطمأنينة "لا، لا شيء يدعو للقلَق". التفتُ إلى يزن محاولاً استشراف رأيه "ما رأيك يا يزن؟"

يزن، الذي غالباً ما يملأ الصمت بحديثه، بقي صامتًا هذه المرة، بلاغة الصمت قد تكون أبلغ من بلاغة الكلمات.

حينها تيقنت أن الأمور أكثر خطورة مما كنت أتصور.

ثار عمار واتهمني بأنني أساس المشكلة، شعرت أن الأرض قد زُلزلت تحت قدمي. وقفت هناك، وشيء داخلي قد انفجر. أمسكت بعمار بيد ترتجف من الغضب والحيرة؛ فكيف له أن يقول هذا؟

يزن بسرعة تدخل بيننا، يحاول أن ينزع عمار من قبضتي، لكن كان عمار قد أشعل فيّ نارًا لم أعهدها من قبل.

"لم أكن أعرف أنك جبان لهذه الدرجة، لو كنت أعلم، لما طلبت منك الحضور!" صرخت في وجهه، كلماتي تتقاذف كالحجارة.

الكلمات التي رد بها عمار كانت كصاعقة تضربني دون إنذار: "من الغباء أن تفعل جريمة بسبب بنت لا تعلم بوجودك."

تلك الكلمة، كأنها قوس قزح في سماء ملبدة بالغيوم، فتحت جرحًا أحاول دومًا إخفاءه. دفعت يزن بعيدًا بيأس، ولم أستطع السيطرة على نفسي أكثر من ذلك. كانت يداي تتحركان من تلقاء نفسها، والضربات التي وجهتها إلى عمار كانت تخرج كل ما في قلبي من ألم.

قاومني عمار، وتبادلنا الضربات حتى تدخل يزن وفصل بيننا مرة أخرى. "أنتم أصدقاء، لماذا تفعلون هذا؟!" صرخ يزن، ولكن كلماته لم تصل إلى أذني ولا إلى عقلي.

نظرت إلى عمار بحقد لم أره في عيني من قبل، ثم التفت وغادرت الحديقة دون كلمة. دون أن ألتفت إلى الوراء، مشيتُ صوب المنزل، خطواتي تثقلها الأسى.

وصلتُ إلى المنزل، ودون أن أتحدث مع أحد، توجهتُ مباشرة إلى غرفتي. هاتفي كان يرن بمكالمات يزن، لكني لم أكن في حالة تسمح لي بالإجابة. أغلقتُ الهاتف بكل ما أوتيت من قوة، واستلقيتُ على السرير محاولاً جمع أفكاري.

كل كلمة قالها عمار تدور في عقلي، تصفعني مرة تلو الأخرى.

يزن:

غادر عيد المكان بلا كلمة أخرى، خطاه تذروها الريح كالوعود المنسية. وقفت هناك، بينما بقايا المشاجرة تلفح وجه الليل المظلم. "يا لك من وقح يا عمار"، همست في قلبي، أردد كلماتي بصمت عاجز عن فهم ما حدث للتو.

أنظر إلى عمار وسألته بلهجة تقطر حيرة وأسف "لماذا حدث هذا؟" ولكنه ظل صامتًا، كأن الأمر مجرد هزيمة جديدة في لعبة الحياة التي يرفض الاعتراف بها.

"أنا ذاهب،" أعلنت، شعور بالمسؤولية يتقلد عاتقي، "سأراقب أفعال والدي وأحاول فهم ما يحاك بالخفاء، سوف نعرف ما هي الخيوط التي تحرك هذه القصة."

لكن عمار، بعيون ضائعة بين الحقيقة والحيرة، رمى عليّ قنبلة كلماته "اخرج من القصة، اترك عيد لوحده. لا تورط نفسك في قصصه."

الغضب اجتاحني كعاصفة، "ماذا تقول؟ !" صرخت في وجهه، رافضًا حتى الفكرة.

"أنا أنصحك، لا تتورط أكثر. اخرج من قصة ذلك الأحمق." كرر عمار نصيحته وكأنه يردد إنذارًا. كادت يدي أن تمتد نحوه، لكني أمسكت بزمام نفسي. لم أكن لأترك لغة القوة تتحدث بيننا كما فعل معه عيد، لم يكن ذلك من شيمي.

وقف هناك عمار بلحظة صمت، دماء تلوّن شفتيه، وقال بحزم "أنا ذاهب، واجعلوني خارج هذه القصة. لا أريد أن أكون جزءًا منها بعد الآن."

بينما كان يرحل، لم أستطع كتمان كلماتي "أساسًا ليس لك فائدة بها !" صرختها بغضب وخيبة، تلك الكلمات التي علقت في جوفي مثل حجر.

توقف عمار لبرهة، أنزل رأسه كمن يقر بالهزيمة، ثم أكمل سيره بلا رجعة.

تركني وحيدًا مع الصدى والليل، أقلب في ذهني الأحداث وأتساءل كيف لي أن أتحمل وطأة التاريخ الذي هو الآن معلق على كتفي وعلى صداقات تكالبت عليها الأقدار. وبثقل اللحظات التي تمضي، التزمت عهدًا على نفسي أن أكون على قدر الحكاية، أن أفعل الصواب وأقف بجانب صديقي عيد وأساعده على تجاوز ليلتنا هذه من العتمة إلى الفجر.

عمار:

الهواجس ضيقت عليّ بينما كنت أتجه إلى المنزل، لا يفصلني عن الحديقة سوى بضع خطوات. وهنا، حملت عيني قطرات من الأسى؛ قطرات من الخوف والإحباط.

كلمات يزن رنت في ذاكرتي، كالأصداء في قاع بئر. ظل صعودي إلى المنزل بطيئًا، وهناك على الباب، بدأت بمسح دموعي ومسحت شفتي، محاولًا إزالة آثار الدماء على المنديل. الاستسلام يخيم علي، يحط رأسي المثقل بالوجع نحو الأرض. وفي لحظة صافية من الألم، لاحظت ورقة صغيرة تستند إلى نبتة جانب المنزل. التقطتها بتردد، مسحت دموعي بعزم، وجلست على الدرج. ترقرقت الكلمات على الورقة أمامي...

'7:14' 'يزن' 'تفجير'

لم يكن الأمر حلمًا أو وسوسة... كان الواقع يطرق بابي بلا استئذان. قفزت مذهولًا ورمقت ساعة هاتفي '7:12'. قلبي يخفق بجنون وأنا أبحث عن رقم يزن، لم يكن هناك وقت للتفكير.

تسابقت مع الزمن على الدرج، وأنا أقفز خطوتين مع كل تقدم، بينما الدقائق تعد الثواني بتؤدة مخيفة.

وفي اللحظة التي بلغت العتبة الأخيرة لخروج المبنى، دوى انفجار مدوٍ كأنه يريد أن يقطع أطراف الزمان والمكان، واسودّت الدنيا أمامي. وقعت على الأرض مغشيًا عليّ من هول المشهد، الدخان يتصاعد كوحشٍ مستيقظ من الحديقة، والنيران تلتهم الليل.

"يا إلهي، يزن!" صرخي تخطفه الرياح، والدموع تختلط بأتربة الدهشة واليأس، وأدق الأرض بقبضات يأس مرير. "يا يزن! يا يزن!" اسمه يكرره لساني وكأنه طوق نجاة من واقع يتمزق أمام عيني.

الحلقة التاسعة عشر:

رحلة في زوايا الروح

يزن:

وكأن الزمن توقف للحظة، قلبي تتراكم فوقه الأسئلة والأحداث، وعقلي يعيد تشغيل اللحظات كشريط سينمائي لا ينتهي. الهدوء الكاذب الذي كنت أستمتع به وأنا جالس على مقعد الحديقة لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة.

"يزن اركض خارج تلك الحديقة!" صرخة تقطع صفو السكون، تنسف الهدوء المزيف. الانتباه يعود لي بصدمة وأنا أرى عيد يقترب بكل ما أوتي من قوة وجزع، يلهث محاولاً اللحاق بالثواني.

"اركضضضض!" كلمة واحدة كانت كافية لزرع الفزع في نفسي. الإرادة تأخذ زمام الأمور، ولا وقت للتردد، بدأت بالتراجع بينما تتسارع خطوات عيد نحوي.

يمسك بي، ونبدأ بالركض جنبًا إلى جنب. الكلمات تنطلق من فمي مع كل نفس "ماذا يحدث؟" لكن الجواب لم يكن ليأتي؛ فالانفجار يحدث قبل أن يهمس بأي تفسير.

إنه الصدمة التي تهز الأرض تحتنا، نسقط أنا وعيد من قوتها، والصوت دوّى في الآذان متحديًا قدرتها الطبيعية على السمع. نلتفت، جالسين على الأرض، وكأننا شهود على مشهد خيالي لا يمكن تصديقه.

النار تتوهج كعنقاء تبعث من الرماد، والدخان يغزو الأفق، محيلاً النهار إلى ليل مشؤوم، وأصوات الناس تختلط بأنات الفزع والعجز.

عيوننا تلتقي، وفيها سؤال واحد لم ينطق، "ماذا حدث الآن؟" قلت لعيد، يرد علي بحسم، ليس وقت الحوار، لسنا في مأمن بعد، ويتابع بقلق "أين عمار؟" قدح في ذهني شعاع أمل، "ذهب إلى المنزل." أجيبه والصعداء يمزق صدري، "الحمدلله." يقول، ونعود لاستجماع قوانا وتفكيرنا فيما يجب فعله في أعقاب هذه الكارثة التي هزت جذور الواقع حولنا.

الغموض يلف الأحداث وكأنه اللغز الذي يرفض الانكشاف. المشهد يعتصر القلب بين الحزن والفزع، الألم يلوح في الأفق مثل ظلال ثقيلة من الدخان تعكر صفاء السماء.

نظرت إلى عيد وكأننا المحظوظان في محيط لا يعرف إلا الويل. الهواتف استعادت وظيفتها كوسيلة للراحة بدل الانشغال، فأهالينا في ذعر يريدون أن يسمعوا أصواتنا، يريدون اليقين أننا بمعزل عن الأذى. بعد محادثات قصيرة، اطمئنان مؤقت ملأ الجو، هواتفنا لم تعد ترن. وفجأة، مكالمة من عمار توقظنا من صدمتنا. "يا الهي يزن، أنت بخير؟" سؤاله يسبق السلام.

الحمدلله لولا عيد لكان الموقف شيء آخر. ولكن كيف كان يعلم؟ الجواب غارق في بحر غسلت أمواجه معالم التفاصيل، لا شيء واضح.

الخبر الذي أورده عمار كان مذهلاً، مثل إيقاع قطرة في بركة ساكنة؛ الدوائر تتسع ولا أحد يعلم من أين جاءت تلك القطرة. ورقة مكتوب عليها إسمي ووقت الحدث؟ كيف يمكن للصدف أن تحاكي القدر بهذه الصورة؟ أفكاري تتضارب مثلما النيران تتضارب في صمت الرماد.

"لنتحدث لاحقاً"، كلماتي لعمار تعكس الحاجة للوقت، للهضم، للتفكير.

يوافق على أن نلتقي لاحقًا لمحاولة فك طلاسم هذا الحدث. الوقت يصبح ضرورة، فالفهم قد يكون مفتاح النجاة، أو على الأقل البوصلة في هذه الفوضى.

هدوء مؤقت يلفنا وأنا وعيد ما زلنا نشهد آثار الفوضى والصرخات وعجلات السيارات التي تلوح بأنوار الطوارئ. الأفكار تدور ولكن الوقت هو ما سيكشف المزيد من الأسرار. ننتظر، متيقظين، مدركين أن هذه اللحظات التي نعيشها قد تكون محورية في رسم خارطة الأيام القادمة.

العودة للمنزل كانت بمثابة لجوء إلى واحة الأمان وسط صحراء الأسئلة الحارقة. تخطو أقدامنا متثاقلة تحت وطأة الأحداث، تبحث عن الراحة، عن بعض السكينة بعد الفزع الذي مزق شرنقة الروتين اليومي.

في البيت، كل ركن وكل جدار يبدو كأنه يعبّر عن حنان وهدوء نادر، وهو الهدوء الذي بات يبدو الآن مترفًا بين هذه الفوضى الذي اكتسح المدينة. تتأثر كل خلية فينا بالحاجة للنسيان، ولو لليلة واحدة، من أجل جمع القوى واستعادة التوازن.

نستسلم لأغطيتنا والوسائد تحتضن الرؤوس

التي يكاد يقتلها الصداع، بعد يوم طويل

وعصيب. ولكن الأفكار لا تهدأ، تتموج

داخل العقول مثلما الأمواج تتلاطم في بحر

مضطرب. ولا شيء يعادل صوت الصمت الذي

يخيم على المكان في إبراز حدة هذه

الأفكار.

غدًا حين تشرق الشمس على جامعتنا،

ستكون هناك أسئلة تتطلب الإجابة، وقصة

تحتاج إلى أن تُروى.

كيف علم عيد؟ ما الذي جعله يأتي في تلك اللحظة الحاسمة وينقذني من مصير كان يمكن أن يكون محتومًا؟ تلك التفاصيل التي تظل عالقة بين الشفاه، ستجد طريقها إلى حوار الغد .

في انتظار فجر جديد يحمل معه بعض الإجابات، نستلقي على الأسرة بأجساد مُنهكة وعقول ترفض الاستسلام للنوم بسهولة.

سيكون الغد الفرصة المثالية لفك الطلاسم التي حيرتنا، ولعله يحمل معه السلام الذي تشتاق له نفوسنا .

ماسا:

الأصوات التي اجتاحت المكان كانت قوية بما يكفي لتخترق جدران الروح، وكان التفجير شديد القرب، أقرب بكثير من أي تفجير آخر شهده الماضي. خوف غير مألوف يستولي على القلب، والهدوء الذي كان يعم غرفتي رحل دون إذن.

جلست على سريري، وأناملي تتنقل بين الأخبار على الإنترنت باحثة عما يشرح الحدث. المشاهد المروعة تملأ الشاشة، والنتيجة هذه المرة ليست مجرد دوي بعيد، بل هناك ضحايا وجروح، وحقيقة مؤلمة تتكشف أمام عيني. يا الهي، ما هذا الذي حدث؟

أقوم من فراشي وأتجه إلى باقي أفراد العائلة، بحثًا عن الطمأنينة في وسط الفوضى، ونجلس جميعاً نتبادل الأحاديث ونتشارك الأخبار.

الحديث يدور بيننا بحثًا عن تفسير، عن فهم، عن محاولة لاستيعاب الصدمة التي عصفت بالجميع. سيلاً من الأسئلة يتداولها أفراد الأسرة، "من كان وراء هذا؟"، "هل كان يمكن تجنبه؟"، "ما الذي سيحدث الآن؟". الغضب والحزن والقلق يتخللها لحظات صمت ثقيل، حيث نبقى نتأمل في المشاهد التي تظهر على الشاشات.

في أحضان العائلة يوجد بعض الراحة، والأهمية الحقيقية للوجود معًا تصبح واضحة أكثر من أي وقت مضى.

الحلقة العشرون:

أصداء الزمان

عيد:

استُرقت النوم، فجرًا، على رنين هاتفي المتواصل. تململت تحت الأغطية قبل أن أجيب، فصوت يزن كان ينبؤني بتحاشي الوقت. "ماذا هناك؟" تمت كلماتي بلهاث متعب.

"هيا، حان موعد الجامعة. ألا تعتزم الحضور؟" كانت دعوته تغلفها روح النشاط.

تنهدت بخفوت. "يا رجل، كيف لي أن أذهب بعد ما حصل أمس؟" سؤالي ملؤه دهشة وتعجب.

قاطعني يزن بنبرة متفائلة، "وهل ستقف الحياة عند حادثة؟ إنه اليوم الثاني لنا بالجامعة، يجب ألا نغيب. وأنا واثق أنك تتحرق لتحدثني عما جرى البارحة."

بعبارة مكتومة، أكدت له، "دعني فقط أختار ملابسي وسأكون بانتظارك عند موقف الحافلة."

وأنهيت المكالمة، لتنطلق مقدمات يومًا جديدًا.

قذفت بي الحاجة إلى الإسراع فغسلت وجهي، وألقيت نظرة على انعكاسي في المرآة. ببسمة ساخرة قلت لذاتي، "هل من الممكن أن تحدث كل هذه الضوضاء لشاب في مقتبل العمر؟" ومن ثم شققت دموع ضحك قسرية مرّت كالنسيم في صمت الغرفة.

استجمعت شتات نفسي والبس ثيابي، وبعد الاستماع لدعوة الأمان من أمي، هرعت إلى موقف الباص. الوقت يتسرب كرمال الساعة، إلى أن رأيت الحافلة تتبلور من بعيد وتقترب.

عند الصعود، اصطدمت بعمار ويزن، أغمضت عيوني للحظة ثم تجاهلت مقعدهم واخترت آخر شاغر. لا مجال للمواجهات بعد الغدر الذي وقع. الطريق زحم والدقائقُ عاجزة عن الطيران.

بعد وصولنا إلى الحرم الجامعي، اقترب يزن متسائلاً عن عدم تحيتي له. "كيف لي أن أصافحك وبذلك سأضطر لمصافحة عمار؟" تساءلت أنا صوت القهر مختلطًا بالأدران.

لـم يمهلني يزن فترة للتفسير واستُهجنَت العلاقة المتصدعة، لكنني أصررت على موقفي:

"لقد بانت حقيقته، ليس من نوعية الناس الذين يقفون بجوار أصدقائهـم."

علق يزن بإلحاح، "لكننا لوحة صداقة يجمعنا الكثير."

"يا صديقي، لن تكتمل اللوحة إذا تشوه أحد ألوانها." أغمدت خيبتي برمز الكلام وصمتت.

أما الدرس فقد مرّ كما تمرّ الخريف على الورق اليابس، باهتًا ومُترهلًا بالملل.

وبعد الانتهاء، سحبت قدميَّ إلى مقهى يطل على الجامعة، مصدر الراحة والتباعد الاجتماعي.

جلست بمفردي، رغم الزحام. فهممت بالنظر خلفي حيث ألتحق عمار ويزن. ولكن، بمثابة المغناطيس، جذب يزن نفسه نحوي، جلس وعيناه تسائل.

"هل تروقك الوحدة هكذا؟" تبسمت، "أنا الآن في سلامٍ مع ذاتي."

رغم محاولاته لتغيير الموضوع، إلا أن يزن أصرّ: "هيّا أخبرني، ما الذي وقع بالأمس؟"

الزحام من حولنا كان يتلاشى شيئًا فشيئًا، كأنما جُمهور من الصمت يحيط بنا، تهيئًا لبدء السرد.

أطرقت للحظة، أجمع أفكاري، ثم نظرت إليه وبدأت أسرد التفاصيل بتمعن بينما يعلق عيناه على شفتي انتظارًا لكل كلمة.

"لحظة دخولي المنزل، بدت قدماي كأنما تحملاني بسرعة لاشعورية. توجهت مباشرة نحو الغرفة، تساقط جسدي على سريري بثقل الأفكار العالقة في ذهني.

غصتُ في بحر من الشرود، يدِي تسند رأسي، أتقلب في دوامة الأحداث والمفاجآت التي كادت تجرفني."

أشرت للأرض كأنني أعيد تلك اللحظة،

"فجأة، نظري اصطدم بورقة ملقاة على الأرض،

تبدو بمثابة الغريبة في غرفتي. تمالكت نفسي

والتقطتها، فتحت الورقة لأجد الرقم

'14: 7' متبوعًا باسم 'يزن' وكلمة

'حديقة' تحدقان بي."

عاد صدى قلقي ليتموج في صوتي، "رفعتُ

عيناي لأرى الساعة تشير إلى '00: 7'.

رعب مدوي امتلك دقات قلبي، لم يبق لدي إلا أربع عشر دقيقة. اندفعت خارج البيت، يدفعني اليأس والضرورة، أركض كمَن يحمل راية الحياة."

وصفت له تلك الدقائق المحمومة، "كل خطوة محفورة في ذاكرتي، انهمكت في شوارع الحي، الطرق تعيدني إلى خوفي المتنامي. استغرقني العدو إثنتا عشر دقيقة حتى وصلت إلى أطراف الحديقة، لتتبقى لي دقيقتان فقط."

بابتسامة مختلطة بالإجهاد والارتياح، رويت اللحظة الحاسمة، "ألقيت نظرة يائسة عبر المسافة، وهناك كنت تقف أنت، بعيدًا.

صرخت باسمك مرتين 'يزن! يزن!' أدعوك للركض، ومع كل نداء تتسارع نبضاتي وتتعالى."

"وبعد صراخي الأخير، وصلت إليك، وحينها، حدثت الأمور التي كلاً منا شاهدها..." كان الخاتم لحديثي، أترك قصة الحديقة لمخيلته تستشف ما حصل.

قطع يزن الصمت الذي تلا قصتي بكفه على وجهه، الصدمة تظلل محياه، وتنهيدة صادقة ارتجت بها كلماته: "يا إلهي، لو كنت قد وافقت النوم آنذاك، ولم ترى تلك الرسالة، لكنت الآن... تحت التراب." ضحكته التالية كانت موشومة بظلال الخوف، ولكن كانت تخفي بريقاً من الامتنان.

ابتسمتُ له، محاولاً تلطيف الجو، "ماذا كنت ستفعل لو لم أكن هناك؟" سؤال كان بيننا أشبه بمزحة خفيفة، تلتها ضحكة مشتركة قللت من وطأة الحديث، وربما من وقع الأمس.

اقترب مني يزن بخطوات تشي بنوع من الجدية، كان في عينيه نظرة توسل خفية.

"عيد..."

"أرجوك، فقط للجلوس قليلاً ومن ثم تذهب. لا نريد للأمور أن تتفاقم أكثر." كان صوته يمزج بين الطلب والإلحاح.

نظرتُ إليه بتمعن ورفض مبدئي، "بالطبع لا، يجب أن يبادر الطرف الأخر، هو الغلطان بعد كل شيء."

وسط تبادل الأنظار الثقيل، صاغ كلماته بحكمة مغلفة بخبرة الحياة: "أخ منكم، تحفرون لبعض الحفر ولا تعلمون أن نهاية كل شخص بكم حفرة."

أجبت على الفور، وبصوت غاضب ولكن فيه حكمة أيضًا، "هو الذي حفر لي، وبأداة الحفر التي قدّمتها له يومًا بحسن نية."

هنا توقف يزن عن الكلام للحظة قبل أن يغادر في اتجاه عمار، بدأ يتحدث معه بهمس متوتر. استغليت اللحظة لأخرج هاتفي وأتصفح الإنترنت كأنني أسعى لهروب مؤقت من ضغوط الواقع.

لكن الهروب لم يدم طويلاً، فقد مدّ عمار يده إليّ، إيماءة لرغبة في مصالحة أو تصفية للأجواء على الأقل. ودون رغبة في أن أكون شخصًا جافًا، تصافحت معه، رغم التحفظات التي ملئت نفسي، اكتفيت بإيماءة بسيطة من رأسي في استقبال اعتذاره غير المنطوق.

وافق يزن على اللحظة بقوله "لا نريد مشاكل

يا شباب."

الهدوء الذي دب بيننا كان سطحيًا،

فالكلمات التي التزمت بها الصمت لم

تكن تمثل صلحًا. التفتُّ وجهي بعيداً عنهم،

فذهب عمار وتبعه يزن إلى مكانهم.

أسرح بنظري في أولئك الجالسين حولنا

بالمقهى، وبينما يغرق الجميع في همومهم

الشخصية، كنت أحاول أنا جاهدًا استيعاب

وهضم مجريات اللحظات التي عبرت للتو.

استطلعت الجلسة الثنائية التي اتخذوها، عيوني

تلمحهم بصمت مشحون من بعيد، ثم قررت ألا

أكون جزءًا من الصورة التي لا تروق لروحي.

بدون كلمة وداع، زحزحت الكرسي بهدوء

وتركت المقهى خلفي، أتخذ خطوات مؤيدة

لرغبتي في الوحدة.

الأرجاء الموزعة حول الجامعة تعج بزوايا وأسرار

لم أطلع عليها من قبل، وها أنا أمشي، استغرق في

اكتشاف ما غاب عني.

تدهشني المباني والأروقة التي تحتضن حكايات

متراكمة، وتتنفس بأعمارها الطويلة والصامتة.

في غمرة استكشافي المنفرد، قطع تركيزي صوت أنثوي من خلفي بنبرة مألوفة وملحة، "عيد..."

وقفت في مساري كأنما كُتب للزمن أن يتجمد، متشبثًا براحة الصمت القصير التي ملأت رأسي قبل أن أعود للحظة الراهنة. وبرأس مرفوع وقلب مترقب، التفت ببطء شديد لأجابه ذلك المصدر الجديد.

أمامي وقفت...

الحلقة الواحدة والعشرون:

أبجديات القدر

عمار:

وأنا أجلس هناك، يزداد تشتت ذهني بينما يزن يمضي في حديثه. فجأة وجدت نفسي أقاطعه دون أن أدرك، "عيد احرجني" قلت، مسترجعاً ذهني إلى اللحظة. يزن محتار يرد على سؤالي، "ماذا؟ كيف؟"

شرحت له كيف أن تحية عيد الباردة جعلتني أشعر وكأن الخطأ مني، ولكن الآن، بعد ردة فعله، أشعر أنه هو من أخطأ.

يزن نظر إليّ وقال بثقة تنم عن عمق علاقتنا، "لا تفكر يا رجل، كل هذا سيتم إصلاحه. نحن أصدقاء، سنعود مرة أخرى كما كنا. لا تدايق نفسك."

أنا آخذ نفساً عميقاً وأبتسم خفيفًا لأطمئنه، مؤكدًا على كلماته، "أعرف يا يزن، لست حزينًا." ثم عدت لأستمع له، أملًا أن يستمر السرد متجاوزاً اللحظات الصغيرة من الضيق.

عيد:

يستدير الزمن حول نفسه عندما أسمع اسمي "عيد..." يُنادى به من خلفي بنبرة أعرفها جيدًا. الصدى يتردد في أعماقي وأنا أقف هناك جامدًا في مكاني، متأملًا صوت النداء الذي تغلغل في الأعماق.

رأسي يرتفع ببطئ شديد وألتفت بحذر، كأن العالم قد توقف عن الدوران ولم يعد شيء يتحرك سوى نبضات قلبي المتسارعة.

الأنظار من كل مكان تتجه نحوي، الجدران نفسها تبدو وكأنها تراقب عن كثب.

وهناك، تقف ماسا، ابتسامتها تفتح أبواب القدر.

تقفان عيناها الخاطفتان أمامي، تائهًا بين ظلالهما اللامعة، شعرها الأشقر المائل إلى البني ينساب كشلال من الدفء. أنا هناك وقد ارتسم على وجهي نمص التجاهل، لكن بداخلي أشعر بالسخرية من نفاقي.

تسكن هي في تفكيري أكثر من النفس، أكثر من العائلة والأصدقاء. وعندما تقترب لتحادثني، أظهر لها وجهًا مخالفًا لما يهيج في الداخل.

تناديني وتنقضي الثواني كأنها أزلية، وأخيرًا أتمكن من الرد بكلمة "أهلاً". تسأل عن حالي، وأنا بدوري أخفي توتري وراء استجابات دبلوماسية، "بخير، لعلك كذلك." أشكل اهتمامي بالجامعة، مسرحاً دراماتيكيًا للمشاعر التي تغلي بداخلي، وأسترجع في نفسي التشوق الذي تثيره فيني، لكن ما أظهره هو ملاحظات مقتضبة وغير مبالية.

تبتسم ماسا وتسأل إن كانت لدي خطط، فأجيب كأن كل شيء عادي، وتجولنا سوية داخل المقهى حيث الأماكن مزدحمة، وأتفكه داخلًا على إيقاع السخرية التي يكيلها القدر. لكن الحظ يلعب لصالحنا وتجد ماسا لنا طاولة، كأنها تمنحني فسحة من الزمن لأتنفس.

نجلس، وتنساب الحوارات المشحونة بذكريات المعهد والأساتذة.

بظهور روان تتجدد السرديات ويتسع الحوار، لكن قلبي لا يسعه إلا ماسا.

حوارات مطولة تنسج حتى يقطعها اتصال من يزن يخبرني بمغادرة الباصات، فأجيب بلهجة متمهلة، معلنًا عدم استعجالي للعودة.

لم أستطع أن أضيع فرصة تمضية لحظات أكثر مع ماسا، تلك اللحظات التي يكون فيها الزمان لنا. رأيت الشباب يغادرون المقهى، فأخبرتها بأني سأعود لها بعد قليل، وابتسمت ماسا موافقة ومتفهمة.

هرولتُ خارجًا لألحق بالشباب، وسرعان ما اعترضني يزن بسؤال، "لماذا تريد البقاء؟" أسأله والحيرة في عينيه، "ألم تراني؟" يتردد في الإجابة، وعدم فهمه يزيد من شغف الإفصاح، "ألم تراني مع من كنت في المقهى؟" يقول بلا، وأنا أنتظر لحظة الادراك لديه.

وحين سأل "هل ماسا؟" لم أتمكن من كبت الابتسامة الخبيثة التي كانت تشق طريقها إلى وجهي.

يتفهم يزن الموقف بسرعة وينفجر بالضحك، حتى عمار لا يستطيع مقاومة الإغراء ويضحك بدوره. وكأن يزن يستطيع أن يقرأ التسلية في نظراتي، "لذلك لا تريد العودة؟" يقول مع غمزة وابتسامة واسعة. أنا بمقابل أحاول أن ألقي الخفة على الموقف، وأضحك معهم قائلاً، "أنا سأعود الآن." ألوح لهم بيد الوداع وأعود إلى ماسا وإلى طاولة المقهى، وأنا أحمل ذلك القناع المعتاد للإعراض والتجاهل، متخفيًا وراء لعبة الخداع التي لا أجيد إلا تمثيلها.

كان الحديث يتدفق بيننا كما لو كانت هذه هي اللحظات التي خُلقتِ لنا، حين انتبهنا إلى روان وهي تدعو ماسا لمغادرة الجامعة والتوجه إلى الباص.

إلا أن ماسا، بكل هدوء وثقة، طلبت من روان التقدم بدونها، قائلة أنها لا ترغب في الرحيل الآن. أعجبت بجرأتها، وتساءلت في نفسي، "هل هي تؤخر عودتها لأجلي؟" أثار الاحتمال أفكارًا وأماني تسري الأمل في أوصالي.

بعد أن ودعت روان وغادرت، سألت ماسا كيف ستعود إلى البيت، فكانت المفاجأة أننا تتشارك نفس الشركة. التحقق من هذه المعلومة شكّل لي صدمة بسيطة؛ فلم ألاحظ وجودها في أيّ من الأيام السابقة. اقترحت بسعادة أن نعود معًا هذا اليوم. الفكرة وحدها أسرعت ضربات قلبي.

تحركنا معًا نحو الباص، كل ثانية تمر كأنها ساعة، تتداخل الأحاديث والضحكات، وتمتزج المشاعر بالطمأنينة. وصلنا وانتظرنا الانطلاق وأنا أغمر نفسي بسعادة غامرة، تلك السعادة التي لا تستطيع الكلمات وصفها.

وصولنا معاً كان تتويجاً ليوم غير عادي، الخطوات المتزامنة انعكاس للإنسجام الذي عشناه. وقفت هناك حين سألتني ماسا إن كنت أسكن في ذات الحي؛ السؤال الذي يدغدغ خفايا الروح، فها هو واقعي يعانق أحلامي.

أومأت مؤكداً أني فعلاً من سكان الحي، متظاهراً بالجهل حول مكان إقامتها، وأنا الأكثر علماً بكل تفاصيلها. وعندما أكدت أنها تعيش هنا، فاجأتني بالكشف أننا جيران.

رسمت على وجهي ابتسامة عريضة، وفاضت هي بضحكة رقيقة اسرت القلب، ذلك القلب الذي راودته يوماً أمنية أن يكون سبباً في رسم البسمة على شفاهها.

أتذكر تلك اللحظات الخالدة التي تمنيت فيها أن أشاركها فرحة محضة فقط لمرة واحدة، والآن ها أنا أشهد ضحكتها الخلابة. بوداعٍ حميمي ونية اللقاء غداً، افترقنا، وتوجه كل منا إلى منزله، حيث الأحلام تستلقي على وسادة الواقع، والقلب يخفق بسعادة اليوم وترقب الغد. وصلت إلى المنزل لأتمدد على السرير، أفكاري تتقافز بفرح وأعيد في ذهني كل دقيقة وثانية من هذا اليوم المذهل. "هل كل هذا حقيقة؟" أتساءل في دهشة وذهول. كيف ليومٍ عادي أن يتحول إلى اللحظات التي تصنع المعجزات في القلب؟

ماسا:

بعد الوداع اليومي وتبادل التحيات القلبية مع أمي، انطلقت إلى حيث غرفتي تنتظرني كملاذي الخاص. غرفتي، التي ما فتئت تشهد تقلبات يومياتي وأحلامي، استقبلتني بوسادة ولحاف يدعوان للراحة والاسترخاء. كيف لا، وأنا أخلع عن كاهلي ثوب النهار الثقيل وأحتضن سريري المنتظر. الهاتف بجانبي، جسر التواصل الذي لا يكل، كان ما يزال يحمل أصداء تلك المحادثة مع روان. "أهلًا ماسا"، ردت بنبرة طمأنينة لا يعكر صفوها أي شائبة. "هل زعلتي مني؟"، سؤالي لها كان انعكاساً لخوفي من فقدان تلك اللحظات الصغيرة التي نتقاسم فيها الطريق، كما نتقاسم الضحك والهمسات.

لكن روان، بطبيعتها الرصينة، طمأنتني بأن لا شيء غير القليل من الحيرة عكر صفوها. شرحت لها أنني كنت في الانتظار لرغد التي وعدت بزيارتي من جامعةٍ أخرى لكنا لم تأتي. تفاجأت روان وأظهرت رغبتها برؤيتها أيضاً. وعدتها بإخبارها مسبقاً إذا ما خططت رغد للزيارةٍ مرة أخرى.

أنهيت مكالمتنا بوداعٍ دافئ، ثم تسللت الى قيلولة غمرتني بعمقها. وفي أحضان النوم، تجسد حلمٌ غريب، رؤيا غامضة تغمرها الأبيضية.

كنت أتبع شخصاً يغطيه البياض، ظله قبس من الإبهام، وعندما حاولت الاقتراب، الوقت توقف والدنيا تكشفت خيوطها ليظهر آثار ندبة.

تراجعت للوراء وسقطت في الفراغ، فانتهى الحلم. استفقت وقلبي ينبض بالذهول والدهشة، ومرآتي، على بعد أمتار قليلة، تعكس صورة فتاة تبكي تحت وطأة حلم جاثم. همست لنفسي بينما أراقب الظلام يغمر الكون من حولي، "لماذا هذا الحلم؟ ما الذي يريد قلبي أن يقوله؟" وتوقفت دموعي قليلاً، كما لو أنها استفسارًا يبحث عن جواب في سديم الليل.

الحلقة الثانية والعشرون:

ظلال وحدتي

عيد:

تحت قبة السماء الزرقاء وبين جدران الجامعة

التي احتضنت حكايات عديدة، حفرت قصة حبي

لماسا أخاديد في قلبي. لسبعة أيام تتالت، كانت

حضوري بجوارها كالشمس للنهار، لا يكتمل

إلا بها. مع كل صباح مشرق، كان تعلقي يتسع

كالفضاء، يزداد بزيادة النجوم في ليلةٍ مقمرة.

تلك اللحظات، حيث الألفة تقاسمنا كأسها،

سكبتُ فيها الكثير من الخوف، مخافة أن

يحطم البوح مركب علاقتنا الهشة.

ماسا، بصوتٍ يشبه همس الندى على أوراق الزهور، أثنت على راحتها بجانبي، تلك الكلمات التي هزت كياني بتيار من المعاني. كانت الحيرة تسكنني كطائرٍ ضل عشه، هل هذا توددٌ لصداقة أم هل هو بزوغ فجرٍ لمشاعر أعمق؟

تجولت في أعماق ذكرياتي حينما حذرني عمار، بتلك الهمسات التي تحمل الريبة والشكوك، مصوراً ماسا كالفراشة التي تحط على كل زهرة، ترشف رحيق العاطفة ثم تطير بعيداً. أضاف أنها، كما يقول، متأرجحةً على أمواج المرض النفسي، ولكن عيناي لم ترى لتلك الكلمات دليلاً، لم تشهد إلا الطيبة والحضور الهادئ.

حتى بعد تلك الحكايا، نسجت علاقتي بها أكثر، ولم يكن التعلق يعرف معنىً للوقوف، فقد تجاوز أضعاف ما كان عليه بالأمس.

وإن سألت الأذهان عن حال صداقتي مع عمار بعد الغموض الذي شابها، فلن أجعل للشقاق بيتاً في قلبي أو في قلبه. والله، لن تلبث تلك السحابة العابرة على علاقتنا إلا قليلاً، فتصافينا كان يكتب نهايتها قبل أن يجف حبر ابتدائها.

بالتقاطع مع نسج الليل وبهاء الأقمار، تمرَّدت روحي على النوم، وهجرتُ فراشي، جذبتني نافذة غرفتي كمغناطيس الأسرار، حيث القمر يتلألأ في صمته الظليل.

انعكاس ضوئه يتسلل خلسةً داخل الغرفة، متخذاً من قلبي مأوىً للوجد. أشغل تلك الأغنية العاطفية، النغمات تخترق كياني كسيّرِ موجاتٍ كهروموسيقية تتحرى أوتار الألم، وما إن تبدأ كلماتها بالتلاشي حتى تستسلم عيوني لدموع غزيرة، منبعها عمق معاناتي مع ذكرى لا تغيب.

تتلوى الساعة بين يديَّ الوقت، فالفجر يتسلق جدران الليل رويداً رويداً، وأنا أحتضن ظلامي الأخير قبل أن تستفزني شمس الصباح بواجبات الدراسة. أثرثر مع القمر في صمت الفكر، أبوح له بأسراري وأشجاني.

كيف لا، وقد أُمتزج اسم ماسا بضياءه، كأنها حروفٌ نُحِتت بين النجوم، إيقاع هذه الليلة الصافية. ومع غزارة دموعي التي تستريح على خديَّ، أُحلِّق نحو ذلك القمر، أبحث عن بصيص الراحة في نوره الباهت. ابتسامة مُرتجفة تختلط بصورها المحفورة في عقلي وفؤادي، أثقل بها رأسي المُنحني على النافذة، وأتنفس عبق حلمٍ يمتزج برائحة الأمل والألم.

يُمزِّق ضوضاء المنبه ألوان الحلم، مُعلناً اندحار الليل. أهرع لأرتدي غلاف اليوم المتسارع، متحدياً في عيوني عناء السهر.

معلولة، خُيوط ذاك الحلم تلفُّني مسرعاً، لأجد نفسي أتشبث بالهاتف، أبعث رسالة الصباح إلى ماسا، في خطوة باتت كطقس يومي نؤديه سويا.

بجانب الشارع، وفي زاوية الانتظار، دقائق بدت كساعات، ولكنها مع طلتها البهية تذوب كقطعة سكر في كوب الشاي الساخن. حديثنا يُبنى على جسور من الأمل والحنين العميق، ولا يعكر صفاءه سوى ترقب دقات قلبي لصوت محركات الباص المُقبل.

وعلى مقاعد الباص البالية، تنساب أحاديثنا كجدولٍ في مرعى غني، مُختصرةً مسافات رحلتنا بخمس دقائق وكأن الزمن نفسه يتواطأ مع قلبي المُمتلئ بالحب. تلك اللحظات حيث يبدو المستقبل كصورة تندمج فيها الأحلام بالواقع.

في رحاب المقهى، حيث السرور يُطلق عنانه وسط تجمع الأصحاب، أرى في عيونهم علامات الدهشة والسؤال، فأنا لم أعد عيد القديم، عيد الذي لم يكن يعرف إلا دفء الجماعة. أما اليوم، فقد أصبحت كالقمر الذي ينعزل عن النجوم، مُتأملاً فقط في ضوء فتاة واحدة.

وأنا منغمسٌ في بحر أفكاري الهائج، تعكس شفتاي ابتسامة صفراء، أُردد بصمتٍ: سيأتي الوقت الذي يرى فيه الأصدقاء كيف حبكِ يزهر في أعماقي، يا ماسا. وفيما كنت متلبسًا بهذا الحلم البعيد، عكرت ماسا صفو تجلياتي بسؤالها الذي جاء مُحمّلاً بنبرة الفضول, "ماذا بك يا عيد؟".

لم أشأ أن أجعل من قلبي واجهة لهمومي، فاكتفيت بإلقاء واجب اللباقة بإجابة مُختصرة: "لا شيء يُقلق، ماسا". الكلمات تخرج من بين أسناني وأنا أخفي تحتها تعب ليلٍ أضناه السهر وثِقل قلبٍ يهتز على وقع اسمكِ.

تناغمت ابتسامتها مع حديثي كأن لها رقصةً مع الفجر وتوقُف الزمان، وتابعت بفضول أشد، كأنها تحاول استكشاف الأسرار التي يُخفيها البحر في أعماقه.

ومن بين أمل وصدمة، حملت إليَّ دعوتها للخروج بعد الدوام الجامعي ألواناً من النشوة والتوتر، فكانت الكلمات مني مُتهالكة، تلهث خلف فكرة الخروج معها: "لم لا". وكأن بيننا عهدٌ قطعناه لحظتها.

بعدما اتفقنا على الخروج سوية بعد الجامعة، قامت ماسا واستأذنت بأنها ستعود بعد قليل.

وقف قلبي لبرهة على حافة القلق، أراقبها وهي تتجه نحو شاب لم أره من قبل. كنت أتمنى لو أني استطيع التخفي بين زوايا المقهى لألتقط كل كلمة تنبثق من بينهما، لأفهم ماذا يجمع بينهما ولأزيل الوهم الذي بدأ يخنق أفكاري.

وقفت هناك، ماسا وهذا الشاب، يتحدثان في راحة كأنهما قد التقيا مرارًا. شعاع الغيرة بدأ يتصاعد في صدري، وكلما زادت ابتساماتهما تبادلاً، كانت الأفكار تتجمع في رأسي كسحب ثقيلة محملة بالسؤال الذي لا أجد له جوابًا. يا الهي! كم أشعر بضيق وأنا أرى ملامح الارتياح تحوم على وجهها بينما هي تقف معه.

مع مرور كل لحظة وماسا ما تزال تبتسم وتتحدث بحماس. من الصعب أن أقنع نفسي بألا أهتم، ولكن بدون جدوى. كانت أفكاري تمر كل رشفة من قهوتي الساخنة التي ازدادت فتورًا. وبغتةً، وجدت نفسي أضع رأسي على الطاولة، كغطاءٍ من التساؤلات يلفني، وأغرق في بحر من التفكير العميق، أحاول جاهدًا البحث عن إجابات في أعماقي.

وهكذا ظلّت أفكاري تتصارع في خلدي، حتى جذبتني صوت ماسا، النداء العذب الذي كسر صمت التفكير العميق الذي كنت فيه. رفعت رأسي ببطء، أخفي تحت عيني وميض الحيرة والأسى، واستقبلتها بإجبار ابتسامة على محياي.

"ماذا بك يا عيد؟ هل أنت مريض؟" سألتني بنبرة من القلق تلون صوتها. وأنا، متمسكًا بقشة الكبرياء التي تتلاشى بين يديّ، رددت: "لا، لا يوجد شيء"، وأحاول جاهدًا أن أخفي بركان الانفعالات الذي يغلي في صدري.

اقتربت ماسا، وكأنها تحاول استقراء ما أحاول أن أدسّه تحت غلاف الثبات. "لماذا عيونك لونهم أحمر؟"، اختارت كلماتها دون أن تعلم كيف ثقبت بسؤالها سد الصمت الذي كنت أبنيه. "قلة نوم"، هي الإجابة التي أسقطها في قلب الحوار، كورِقة زورق تبحر فوق موجٍ من الأكاذيب البيضاء.

جلست بجواري، تراقب بعينين تحملان دفء الشمس وحيرتها. "يجب أن تعود إلى المنزل، أنت متعب"، كلماتها تحمل الأمر المحبّب، لكني رفضت أن أعترف بضعفي. "أنا بخير"، أجبتها بتمرد.

وعندما غادرت ماسا لحضور درسها، تركتني خلفها وأنا أحمل وزن العالم على أكتافي، أشعر بالوحدة وسط زحمة الأرواح. نهضت وتوجهت إلى طاولة أصدقائي، رأسي ينحني كأنه ثقيل بالصخور. جلست بجانبهم، وحدي، بصمتٍ، كأنني شبحٌ بينهم، لا أحد يلاحظني.

كان هناك ناس جدد، أنا لا أعرفهم، ولم يكن هناك ترحيب أو كلمة.

أخيرًا، استسلمت للانسحاب من هذا المشهد، خرجت من المقهى بدمعٍ يتردد في هروبه من عيني. أمشي بين أرجاء الجامعة مفارقًا العالم بسماعاتي، أجلس لوحدي على العشب تحت سماء هادئة. ما زلت، منذ صغري، وحدي، أشعر بوحدة تتسلل إلى كل زاوية من روحي. لا أحد بجوابي، ليس لي سوى نفسي، حتى قلبي يخذلني في اللحظات التي كنت أحتاجه أكثر.

الحلقة الثالثة والعشرون:

همسة الأمس

الصمت القابع حولي كسره صوتها، ذلك الصوت اللطيف الذي يأتي محملاً برياح الماضي. "مرحبًا عيد . . ."، دوّت كلماتها في مسامعي، ولم أكن أتوقع أن يخرجني أحدهم من سراديب التأمل والوحدة التي ابتلعتني.

"أهلاً . . . هل تعرفينني؟"، سألتها بنبرة حذرة، والدهشة تكاد تبدو واضحة على محياي. عيناي تفتشان وجهها علّهما تجدان خيطًا يربطني بهذا الوجه الذي يحمل ظلال المعرفة.

"ألا تذكرني يا عيد؟"، استمر صوتها المرتبك بدفء، وكل كلمة تهبط عليّ ككقطرات مطر من سماء ماضٍ غابر. "أعتذر لذلك، لكن عقلي ضايع قليلاً... هل يمكنك أن تعرفي عن نفسك؟"، ردي لم يكن إلا تعبيرًا عن الضياع الذي يخيم على أفكاري.

"يا عيد، نحن كنا سويًا في الابتدائية... منذ سنين طويلة لم أراك."، حديثها يفتح الأبواب أمام روحي لتعود بالزمن إلى الوراء، إلى أيام الابتدائية. أيامٌ طالها النسيان، حيث كان الطفل الوحيد يجد نفسه محاطًا بجدران الانعزال التي بناها حوله.

ثم قالت بينما تحاول إزالة الحجاب الضبابي الذي يغلف ذاكرتي، "أنا جمانة يا عيد." كلماتها تلك كانت كالمفتاح الذي يفتح صندوق الذكريات المغلق منذ أمد.

توقفت في مكاني، كلمة "جمانة" تتردد في رأسي. دمعة تخون الصمود وتتسرب من بين جفوني التي خانها التحمل. "جمانة..."، تكاد أن تكون كلمة من الماضي تخرج من أعماقي. وأنا هناك، لوحدي، أتلمس الحقيقة في عجالة، محاولاً أن أجمع أنقاض الذكريات وأجهش بالبكاء على ما فات من سنوات كانت بأرجائها تلك الصداقة الصغيرة، الوحيدة، التي كانت تتلألأ في سماء طفولتي المعتمة.

يزن:

آآه يا عمار، قلبي يتمزق حين أفكر في ما حصل.

نظرت إلى وجه عمار، كل واحد منا يعلم بعمق أن عيد، صاحب الروح الهادئة والابتسامة السخية التي كانت تأنسنا، ليس بخير.

"يا يزن، عيد قد تغير، لم يعد كما كان قبل الفتاة تسكن عقله..."، كان عمار يقول ذلك وأنا أحس بثقل كل كلمة تخرج من فمه. "لم يعد يجلس معنا ولا حتى يحادثنا ولا حتى نخرج مع بعض كما كنا قبل."، ومع استمراره بالكلام، شعرت بالأسى يغلف قلبي، وأنا أتأمل فيما كنا عليه وما وصلنا إليه الآن.

دانيال، الوافد الجديد على دائرتنا الذي لا يعرف قصتنا جيدًا، وكريم الصديق اللطيف الذي يحاول دومًا أن يجمع الشمل انضما إلى الحوار بسذاجة الجديد على الموقف، سائلين عما إذا كان الجالس هنا منذ قليل هو صديقنا.

"أجل صديق لنا..."، قلت ذلك وكأن كلماتي تنزف حزنًا وأسى، ودانيال وكريم يحملقان فيّ بنظرات حائرة، يتساءلان عما يحدث.

وحين سأل كريم لماذا ذهب عيد، "لأننا لم نتحدث معه شيء و لم نعطيه أي اهتمام..."، صحيح أننا أعرضنا عنه ولكن ليس لأننا لا نهتم، بل ربما لأن باطن الروح يعلم أن الأمور لن تعود كالسابق.

ربما الخوف من المواجهة، من مواجهة حقيقة تغير صديقٍ كان يمثل جزءًا لا يتجزأ منا.

وحين طلب كريم تفاصيل القصة، "قلت له قصة طويلة سنتحدث بها فيما بعد..."، وضعت نهاية للحديث الآن، ولكن عندي يقين بأن حوارًا طويلًا سينتظرنا، حوار يحمل في طياته قصة عيد و وتلك الذكريات التي أصبحت الآن كالزوارق المنكسرة على شاطئ التناقضات في حياتنا.

في الحقيقة، ما زلت حائرًا. هل تركنا عيد خلفنا أم إنه تركنا نحن؟ الأكيد أن شيئًا مهمًا قد انكسر بداخله وبداخلنا، وأحس الآن بثقل الوجود وتعقيدات الروابط الإنسانية، فلا شيء يبقى على حاله، والحياة تجري متدفقة متغيرة، ونحن معها.

عيد:

أمام ابتسامتها الساحرة، اختزلت السنوات الطويلة التي فرقت بيننا إلى لحظات، فقد هبت الأقدار وجمعت شتات ذكرياتي بطريقة غامضة ومذهلة. "جمال القدر يا جمانة، الذي جمعنا الآن بعد سنين..."، قلتها وأنا أتأمل عجيب مفاجآت الحياة.

ضحكت جمانة بخفة، وقد لاح في عينيها بريق الألفة المتجددة، "أليس كذلك؟ كم هي صدفة جميلة." وأنا أعجز عن تفسير الإحساس الذي ملأ صدري بأن هذا اللقاء لم يكن مجرد صدفة.

لا بد أن أعرفكم على جمانة، فهي ليست مجرد شخص تقاطعت مساراتنا يومًا ما. جمانة، هي الرفيقة التي لم تعرف الروح سواها في أروقة تلك المدرسة القديمة. كانت حينها الأمل في يومي، نبراسًا يضيء دروب الطفولة التي كانت لتظل مظلمة لولا وجودها. لم يكن لدي صديق سواها، وفي آخر سنة من المرحلة الابتدائية، لملمت جمانة حقائبها وذكرياتها وانتقلت إلى مدرسة أخرى، ومنذ ذلك الحين، ضاع صوتها وضحكتها بين ثنايا الوقت.

ألم تسألوا يومًا عن جراح الطفولة وكيف يمكن أن تبقى معنا حتى نضجنا؟ كيف يمكن لتلك الروابط البريئة أن تشكل جزءًا من كياننا إلى الأبد؟ وها نحن اليوم،

أنا وجمانة صديقة طفولتي، على مقعد في حديقة تتشارك مرة أخرى، ليس فقط الماضي، بل لحظة حاضر مفاجئة ما كنت لأتخيلها.

اتصال ماسا يخترق حديثنا، وأنا أمسك الهاتف، تدفقت الكلمات بصوت يألف القلق الممزوج بالاهتمام "أهلاً، عيد أين أنت؟" سألت ماسا بنبرة متسارعة. "في الحديقة..." أجبت بتلقائية، ولمحت نظرة الفهم بعيني جمانة. "أين أنتِ، سأتي إليكِ الآن." أرشدتني إلى مكانها وأغلقت الهاتف.

لمحت تلك النظرة المتسائلة في عيني جمانة،"هل

تريد الذهاب؟"

شرحت لها. "أجل، للأسف علي أن أذهب."

تفهمت جمانة بلطفها المعهود، "لا عليك، لدينا

الكثير من الأيام لنتحدث ونجلس سوياً"،

قالتها بتفاؤل يخترق القلب. وقبل أن نفترق تبادلنا

أرقام الهواتف لنضمن استمرار الوصال الذي

جمعنا مرة أخرى بعد فراق طويل.

ما أن غادرت مكان اللقاء حتى شرع القلب

يترنح بين سعادة لقاء جمانة وقلق من صوت ماسا

المضطرب الذي رنّ في أذني.

وبينما كنت أمشي بين الأشجار، تبدلت الأحاسيس بسرعة حينما وقعت عيناي على ماسا.

ولكنها لم تكن وحيدة.

كان معها ذلك الشاب نفسه.

شعور الغضب وحماقة الغيرة بدآ يغزوانني، يملآن صدري حتى كاد يكتم أنفاسي. شيء بداخلي انقبض وأنا أشاهدهما معًا يتحدثان ويضحكان. تجمّدت في مكاني وتراجعت خطوات، أخذت أستوعب الوضع وأكافح دواخلي التي بدأت تثور.

استقررت على كرسي قريب، أحاول التقاط أنفاسي وأخفف من لهيب الغيرة التي بدأت تستعر فيّ. أراقبهما من بعيد، وملامح الغضب ترتسم على وجهي. لكن العقل بدأ يكابد القلب، محاولاً تهدئة العواطف الجامحة التي تركض في روح الإنسان عندما يرتطم بالواقع المرير. فالحياة معقدة والقلوب ليست دائمًا كما تبدو، ولكل منا دواخله التي تفيض بمشاعر متضاربة، تتأرجح بين الغضب والحب، بين التفهم والجنون. وهنا أنا، متوجهًا اليهم، لست أدري بأي موقف أقف.

عندما لوحت لماسا، استأذنت الشاب بابتسامة وتوجهت نحوي. يمكنني أن أرى الارتياح في خطواتها وهي تقترب، لكن تغيرت ملامح وجهها قليلًا عندما لمحت تعابير وجهي القاتمة. "ماذا بك يا عيد؟" سألت بصوت ينم عن القلق. "لا شيء..."، خرجت الكلمات بثقل من فمي، محاولاً ستر الغضب الذي أحاول كبته. "كيف لا شيء وجهك لا يطمئن، ماذا حدث لك؟" أصرت ماسا على معرفة الأمر.

وأنا أكافح لإبقاء مشاعري تحت السيطرة، "حدثت مشاجرة بيني وبين أحد الأصدقاء..."، صاحب الكلمات نبرة مغلفة بالأسى، فلا أريد أن أثقل عليها بما أشعر، فأنا أدرك في قرارة نفسي أن جذر استيائي هو الغيرة التي أشعر بها من ذلك الشاب الذي كانت تقف معه.

"كيف حدث ذلك؟"، أصرت ماسا على السؤال، فأجبت "حدة بالكلام بيننا..." وتوقفت، أكافح مع تفاصيل الخدعة ومع الإحساس الحارق في صدري بأنها هي السبب في كل هذا.

لكن قاطع فكري صوت ماسا اللطيف، "هيا يا عيد، دعنا نجلس في مكان ما." فأردت أن أطمئن على أمر معين، وكأنها مجرد استفسار بسيط، "هل هذا الشاب كان معنا في المعهد؟"

"الشاب الذي كنت أقف معه؟" تساءلت بنبرة استفهام.

أومأت برأسي موافقًا.

"لا، لم يكن. إنه أحد أولاد أصدقاء عائلتي، نحن نعرفهم منذ زمن." أجابت ببساطة، موضحة العلاقة التي كانت تربطها بالشاب.

هيا لنذهب، فقالت بنظرة استفسار "هل تعرفه؟" قلت بتلقائية مخففًا وقع السؤال، "لا، فقط سؤال عادي."

فابتسمت ماسا وطوينا صفحة الحديث. وبدأنا نمشي جنبًا إلى جنب نحو المقهى الذي نفضله، وبينما كنت أحاول أن أعيد ترتيب أفكاري، كان قلبي يعمل على معالجة الأحاسيس المتضاربة التي أحسست بها، وسعيت لأستعيد السكينة التي تمكنني من الاستمتاع بقضاء وقت مع ماسا، دون أن يعكر صفوه أي شعور بالغيرة أو الاستياء.

الحلقة الرابعة والعشرون:

أحببته

على خلفية رنين الأحاديث وضوء المقهى الخافت، كنت هناك جالسًا إلى جانبها، محاولًا قطع حبل الصمت الذي يلف حديثنا. فجأة، انضمت إلينا روان كنسيم أبريل، محملة بتحيات رائقة، وأحاديث تخترق السكون. لم تمض لحظات حتى بدأت ماسا بصياغة ملاحظاتها، "أشعر وكأنك بتّ غير قريب من أصدقائك، لم أعد أراك تشاركهم الجلوس." نظرتها كانت مباشرة؛ لو تمكنت من قراءة الألم الراقد في أغوار عيني، لفهمت كل ما أود قوله. جاهدت لجمع أنفاسي وقلت مسترقًا نفسًا بالية، "لا، كُل شيء على ما يرام، منذ قليل كنت بينهم." رسمت ابتسامة على شفاهها، كإشارة مفعمة بالتفهم.

وسط الحديث الدافئ، رمت إليّ ماسا سؤالًا محمّل بالقلق، "هل خلافك كان مع أحدهم؟" أجبتها بصيغة النفي، أضافت إلى الأثير الملتبس حولنا، "شخصٌ آخر إذًا." لم تفصح اقتناعها كليًا بردي، لكنها لم تكمل.

اعتذرت عن جلوسي وفي اللحظة نفسها، تمتمت برفق "إلى أين؟" التفتُ إليها قائلًا بعبء خفي، "سأتنسم الجلسة مع أصدقائي قليلًا." على وجهها نمت ابتسامة موافقة، وهي تراقب انصرافي قائلة، "كما تشاء."

بخطى مهتزة، وجدتني بينهم، أتوسطهم وكأنني شبح، لا يكاد أحدهم يعير لحضوري أي امتنان. فوق أصواتهم المداومة يبرز عمار ويزن، وذلك الغريب الذي لم يسبق لي معرفته.

مرّت دقائق، بلا إهتمام. وفي حين تهاوى انتباهي، مدّ احد الأشخاص يده نحوي، "مرحبًا، أنا دانيال."

"أهلًا بك، دانيال." دعاني للجلوس معهم، وأجبته: "هل تعرفني؟" أكد بثقة، "بالطبع، لقد سمعت الكثير عنك يا عيد، تشرفت بمعرفتك." صافحته وتعلقت بابتسامته، قائلًا "سأعود قريبًا، عليّ احضار شيء."

خرجت متهاويًا خارج المقهى، شارد الذهن، شارد الروح. التقيت بائع الدخان، أخذت دون عِلمٍ بالأسماء، لكن سمعت كسراب أن الدخان قد يسكّن نفسية متأرجحة.

داهمت السيجارة شفتي، أشعلتها كقنديل ليل مظلم. مع كلّ نفثة أُغلق عيني، تمرّدت ذكرياتي أمامي، صورٌ ملطخة بأوجاع السنين.

دخلت مجددًا برفقة الدخان، ألقيتُ بظلالي على الطاولة حيث كان الشباب، مصعدًا دخان السيجارة، يقطع سُكون الجلوس. كمدافع عن عالمي المبعثر، وضعت علبة السجائر على طاولة الضجيج. اخترقت ملامح الصدمة وجوه عمار ووليد، كمن يرى غرابًا في صحوة النهار. بدوره قفز يزن من مكانه، "أتدخن يا عيد؟" انبريتُ للرد، "وما الذي يعنيك؟" تصورني مجنونًا، آثرُ الصمت بدل الجدال، أمواج الكلمات اصطدمت بشاطئي، "اتركوني لشأني.

حين فاضت حياتي بالمخاطر، لـم يكن عود الدخان

سوى قشةً في بحرٍ عاصف.

أخذت العلبة، ملتقطًا الفتات المتبقي من كبريائي،

نظرت إليهـم بعمق، "هل من شيء تريدونه؟"

وكلماتي تتدفق بثقل، "فأنا واضحًا لا أَلقى الرغبة

هنا." يزن ارتبك، "ماذا تقصد؟" لكن كلماته

توارت خلف خطواتي الحثيثة الخارجة من المقهى،

ودمعة المصير حبيسة العين.

ماسا:

السكون المفاجئ الذي أحاط بي كان كافيًا لتلاحظ روان التغيير الطارئ على ملامحي. "ماذا بك يا ماسا؟"، سؤالها المباغت أجبرني على النظر في عينيها، قبل أن أسمح لشهقة الكلمات أن تفر من بين شفتي، "أشعر وكأني مُتعلقة جدًا..."

الحيرة ارتسمت على محيا روان "متعلقة؟" يتشكل في حدقتيها دون أن تنطق. "نعم، متعلقة." أتممها بثقل، وأنا أتجنب النظرات الفاحصة.

"بماذا؟" سألتْ روان فورًا، لا تزال تحاول استكشاف الغموض الذي يلفُ عبارتي. تشبثت بلحظات الصمت الطويلة، كأني أبني جسرًا لعبور كلماتي الصعبة. "متعلقة ب..." الكلام يتهادى على لساني دون أن يبرح.

"بمن؟" روان تواصل بحزم، فتحتُ فمي وأنا أحاول لم شتات أفكاري، "بعيد..." وبهمسٍ يكاد يكون نسيمًا، أرخيت رأسي هاربة من أي عين قد تقرأ الاضطراب الذي يعمني. هلسها كانت تنطق ببراءة، "هل يعجبك عيد؟"، كلماتها أثارت في أعماقي موجة من الاعترافات المكبوتة. "أشعر بذلك." أفصحت، ودون وعي إسندت رأسي على طاولة الاعترافات، وبتّ أتأمل في انعكاسات حقيقتي المرسومة على سطحها الخشبي.

لـم يدم تسكع ذهني طويلًا، إذ وجدتني أرفع رأسي مستفسرة عن عيد، "لا أريد أن أنظر، هل هو مع أصدقائه؟" كان قلقي يرتدي ثوب الحيرة، فأجابت روان بحكمة من تعرف جيدًا تقلب المزاج الإنساني، "رأيته خارجًا من المقهى قبل قليل."

يا لها من طعنة نافذة، "آه، أشعر وكأنه يحاول تفادي الجلوس معي..." بدت كلماتي وكأنها تنساب من بين شقوق قلب مُتعب. "لا،" ردت روان بلهجة مطمئنة، "بالتأكيد جلس مع أصدقائه قليلًا ومن ثـم خرج. لا تقلقي."

ومع ذلك، لم يهدأ نبض القلق الذي يتسارع خلف قفصي الصدري، فأعدت رأسي إلى ملجأه الوثير على الطاولة، مرةً أخرى. تاهت أفكاري، وبدا وكأن الصمت الذي تلاحقه أنفاسي المضطربة هو الرد الوحيد الذي يليق بلحظة مثقلة بالتساؤلات دون إجابات.

روان، تلك الفتاة التي تحول مهارة قراءة الوجوه إلى فن، استطاعت أن ترى ما يتجاوز طبقات صمتي.

"ماسا؟" دعوتها المبتهجة جذبت رأسي من على الطاولة، ووجدت ابتسامتها المشاكسة تتلألأ مع غمزة كليّة بالمكر.

ومع ذلك، لم يهدأ نبض القلق الذي يتسارع خلف قفصي الصدري، فأعدت رأسي إلى ملجأه الوثير على الطاولة، مرةً أخرى. تاهت أفكاري، وبدا وكأن الصمت الذي تلاحقه أنفاسي المضطربة هو الرد الوحيد الذي يليق بلحظة مثقلة بالتساؤلات دون إجابات.

روان، تلك الفتاة التي تحول مهارة قراءة الوجوه إلى فن، استطاعت أن ترى ما يتجاوز طبقات صمتي.

"ماسا؟" دعوتها المبتهجة جذبت رأسي من على الطاولة، ووجدت ابتسامتها المشاكسة تتلألأ مع غمزة كليّة بالمكر.

"ماذا يعجبك في عيد؟" لفت سؤالها اللعوب محور الضوء علي مرة أخرى، ولكن هذه المرة بإضاءة الدعابة. "دعيني وشأني،" همست بخفة مصطنعة لأخفي تحتها اندلاع عاطفتي.

لم تتوقف روان، بدأت ترسم في الهواء باقة من الاحتمالات، "هل شعره الأسود؟ أم طوله؟ ربما طريقة كلامه؟ أو عيناه؟ حتى ابتسامته؟" كانت كل خيارٍ تطرحه كفيلًا بأن يُشعل وجنتي بلون الحرج، فاقتصر جوابي على استنكار مشاعري، "كفاكِ يا روان."

"ولكن لما أنتِ حزينة؟" تساءلت بصوتٍ ناعم، كصديقة تحاول أن تُغطي على عواطفي الهائمة بلطف، وقد تقدمت نحوي بحنان. "لست حزينة، فقط أفكّر بشيء،" الأمانة اضطرتني لتبسيط مشاعري في كلماتٍ لا تفي حقها.

وما هو ذلك الشيء؟" كانت روان تحفر في العمق، تطلب السر الذي اعتصرته بين أناملي بإحكام. التزمت الصمت مجددًا، وكأني أجمع ما تبقى من جُملٍ متشظية. وبعد وقت يُحسب بنبضات قلب ثقيلة، وجهت نظراتي إليها وبصوتٍ أخفت بين ثناياه شجون الحيرة قلتُ "عيد..."

كما نسج النهار خيوطه الذهبية عبر نافذة المقهى، تسلل رشاد إلى جلستنا كظل يعكر صفو الحميمية. "يالك من ممل، ألا تريد أن تتركني بحالي؟" همس صوتي الداخلي مُتذمرًا، بينما جلس معنا دون استئذان، يلوك كلماته بأريحية.

هناك حيث الدردشة المتبادلة، كنت أعتصر الصمت، وروان تتحمل عناء الردود، ترّقص الكلام برشاقة فاتنة حتى مع من لا تكن له كل مودة. كانت تعلم، من دون شك، الزوبعة التي تلفني، تحميني بينما أغرق في فكري البعيد .

شرودي تحول إلى مركبة تجوب عوالم بعيدة وأعماقي...

"بم أنتِ شاردة يا ماسا؟" جاء سؤال رشاد كما لو أنه يدق ناقوسًا يُعلن نهاية رحلتي الخاصة.

انطلقت ابتسامتي المصطنعة كنور شارد، "لا شيء، لا تقلق." وكانت نظراتي تعود لتسكن في ملكوت الفراغ، بعيدة كل البعد عن الطاولة التي تجمعنا وكلماتٍ تتهاوى في غير مستمع.

نظراتي المتيمة كانت ترسم في الفراغ، حين ظهر عيد أمامي بطلته التي توقف نبض اللحظة. واقفًا، محطته النظرات المتقاطعة بيننا، وعندما عبرت نظره وتوقفت على رشاد ومروان.

لم يجانبه التصنع، فقد كانت ابتسامته بسيطة، متعادة، كأنها تعتذر بلباقة عن المغادرة المفاجئة. بيني وبين نفسي، شدّتني الخطوات وأنا أسري اليه، "عيد..." كانت كلمتي تحمل بها روحي المتعلقة بمن أراني ظهره.

التفت بحركة سلسة، ابتسامته تزداد دفئًا عندما التقت عيوننا.

"هل يزعجك كون رشاد هنا؟" السؤال اندلق مني، يحمل قلقًا غير مخفي وترددًا محسوسًا.

"بالطبع لا، ليس من شأني." رد بهدوء، لكن البساطة فيها نزعة تقطر انزعاجًا لم تخطئه ملاحظاتي. "لا تكذب يا عيد، لو لم يزعجك، لماذا التفت الى هناك ثم ذهبت؟" كانت كلماتي شجاعة، إذ خرقت طبقة الاحتمالات لتلمس الحقيقة.

بعد نفس عميق، فاض بما في داخله، "أنا بالفعل لا أحبذ الجلوس مع غرباء." وفي لحظة صمت، انتهز قلبي الفرصة ليعترف بإحباطه، يا لك من أحمق، يا رشاد.

ولكن ظلت تلك الكلمات خبيئة، لم تجرؤ على تمزيق سكون الجو.

بخاطري مضطرب، لكن بكلمة مطمئنة أخبرته، "انتظرني قليلاً." حينها، أردف، "إلى أين أنت ذاهبة؟" وكانت إجابتي قاطعة ببساطتها، "انتظر فقط."

عدت إلى المقعد، حملت حقيبتي بسرعة، ضمنتُ جواز مغادرتي بإيماءة بسيطة لروان، وتجنبت النظر إلى رشاد، وأسرعت بخطوات بليغة نحو عيد. "هيا لنذهب لنتمشى." انطلقت دعوتي، وصداها التفاؤل، ليرد هو بابتسامة ودعوة مرحبة، "لما لا."

لاهثين بعض الشيء من سرعة الخفقان، غادرنا المقهى إلى مشهد جديد. انصرافي لم يخلُ من لحظة تردّد حين اعترضني بقلق، "ماسا، لا يتوجب عليك التباعد عن أصدقائك من أجلي." الإصرار كان مُرنمًا في صوتي، "بالطبع، لا، لم أخرج معك لأعود."

كانت لحظات السير نحو الحديقة مشبعة بالهدوء والتفهم الطائر بيننا. وهناك، على مقاعد الانتظار، نسجنا حوارًا عبر موجات الهواء العليل، حتى نادى الباص بوقت رحيله.

جلست جنبه، وتحدثت عن أصدقائه ومروان، وتداخلت أصواتنا حتى تسلل النوم إليه. وجدته مستغرقًا، واندفعت الحنين للمس يده، لكن التحفظ اعتراني. وبغمرة الأماني، خفق قلبي مع الاعتراف الصامت بعمق مودتي. عند وصولنا، أيقظته برفق، وغادرنا الباص سوية ولكل وجهته. ترحيب الأهل كان بلسمًا بعد يوم تراق صفحاته الآن في مذكرتي، تلك التي ستحمل أحداثه بين ضفافها للأبد.

الحلقة الخامسة والعشرون:

بكيت لأجلك

عيد:

كانت اللحظة إحدى تلك اللحظات الفارقة، التي تستيقظ فيها على وقع حدث لم تتوقعه. كان هاتفي يرن، وانعكاس الضوء على جدار غرفتي يرقص مع نغمات الرنين. سماء الظهر جميلة، لكن اسم "ماسا" المضيء على شاشتي أيقظني من سباتي العميق. لماذا تتصل الآن؟ هذا ما خطر ببالي وأنا أحدق في الرقم الوامض.

بقبضة النوم لا تزال على لساني، رددت بصوت أجش، "أهلاً ماسا." لم تكن تلك المرة الأولى التي أسمع فيها صوتها، لكن في كل مرة، كان يبدو أدفأ وأحن من ذي قبل. "مرحباً عيد، كيف حالك؟" استفسرت بلطف.

كم كان هذا السؤال دائمًا بمثابة مفتاح لأسرار مكنونة. "بخير، كيف حالك أنتِ؟" سألتها محاولاً الظهور بأكثر هدوءً مما أشعر به فعلاً.

"بخير." قالتها ومن ثم سألتني بتلك النبرة التي تخفي وراءها ابتسامة يشعر بها القلب قبل الأذن، "هل نخرج الآن؟" فجأة، بدأت ذاكرتي الغافية تستفيق. كنت قد نسيت، نسيت أنني وعدتها بأن نخرج سوياً. شعرت بالحمقاء وأنا أضحك بيني وبين نفسي. "كيف استطعت نسيان موعدٍ مع ماسا، نسيان موعدٍ مع فتاة قلبي؟" وعدتها وقلت، "ربع ساعة وأكون عندك."

غيرت ملابسي دون أن أعي كثيراً ما أقوم به.

كل ما في ذهني هو ساعة اللقاء التي تعقربت إلى السادسة مساءً، حيث تسللت إلى نفسي رغبة ملحة في رؤيتها. مضيت قدمًا نحو الحمام، حيث عكس الماء البارد صورة ذلك الشغف الذي يتسلل إلى قلبي. وبعد لحظات، أخبرت والديّ بأنني خارج، وانطلقت نحو منزل ماسا على وقع أنفاس متحمسة.

وتحت منزلها، أعلمها بوجودي. "أنا في انتظارك"، قلتها بتوقعات تملؤها أحلامي. ولم تمض دقيقة حتى أبصرتها تخطو خارج البناية. كان شعرها الأشقر وعيناها العسليتان كافيتين ليذيبا قوة قلبي الذي كان يتوق دائماً لرؤية ملامحها الملائكية. كل ما بها يصيبني بسهام العشق.

اقتربنا من بعض وتبادلنا التحية بأصدق المشاعر. "أين تودين الذهاب؟" سألتها فردت بصوت كموسيقى هادئة، "لنتمشى قليلاً". سرنا في الشوارع الهادئة، حديثنا يجول بين طيات الأشجار المنحنية وضوء الشارع المتوهج. وبينما نحن غارقون في تلك الأجواء الرومانسية، قطعت ماسا صمت الحديث بفكرةٍ مفاجئة. "هناك حديقة لها ذكريات خاصة بي، وشجرة منحوت عليها اسمي. دعنا نذهب ونكتب كل منا أمنية، ثم ندفنهما تحت الشجرة". وهكذا، ودون تردد، وافقت وانطلقت معها في مهمة الأمنيات. بيدها الناعمة، قدمت لي ورقة وقلمًا.

التقطت القلم وأنا أحدق في عيونها التي كانت تلمع بنور الأمل والبراءة. وبقلب باحث عن السلام، خطيت على الورقة أعز أمنياتي، "يا رب، اجعل ماسا من نصيبي"، وأطويت الورقة بعناية وأشعر براحة غريبة وأنا أهمس، "جاهز".

ثم جاء دورها لتكتب، وبينما كانت تفعل ذلك، خيل إليَّ أني رأيت بداية كلمة "أريد الزواج..." لكن الاسم الذي يليها بقي خارج إدراكي. ساد الفضول المشهد، تاه الاسم في ملكوت الغموض، وتملّكني فضول محرق.

من يكون يا ماسا؟؟

ماسا:

كان يومًا جميلًا برفقة عيد، هذا اليوم سيصبح حتمًا واحدًا من تلك الذكريات العزيزة التي نخبئها للأيام القادمة. على الرغم من أننا نعرف بعضنا البعض منذ وقت قصير، إلا أنه يبدو كما لو كنت أعرفه منذ سنين طويلة. بعد يوم حافل بالمشاعر واللحظات التي قضيتها معه، عدت إلى المنزل وتناولت الطعام، ثم توجهت إلى غرفتي حيث جلست لأعيد ترتيب ذكرياتي الجميلة واللحظات الرقيقة التي جمعتنا. بعد ذلك، استسلمت للنوم بسلام.

في الصباح، استيقظت على صوت المنبه، وسريعًا غسلت وجهي ووضعت القليل من أدوات التجميل، وارتديت ملابسي بعناية. اليوم كان يومًا آخر في الجامعة، وقد تحول إلى روتين يومي معتاد. عيد وأنا وصديقتنا روان جلسنا معًا على الطاولة المعتادة. كل مرة أجلس فيها بجانبه، أحس وكأنني قد أغرق في عينيه، وأشعر بانه في أغلب الأحيان يكون متوترًا، لكنني لا أعلم السبب الحقيقي وراء ذلك.

كنت في منتصف الحديث مع روان، عندما سمعت صوت هاتف عيد. بدا مشتتًا ينظر حوله وكأنه يبحث عن شخص ما. اعتذر منا بلطف وقال، "قليلًا وسأعود." ابتسمت له وأومأت برأسي موافقة، لكن داخلي كان يشوبه الفضول.

راقبته وهو يقترب من باب المقهى حيث كانت تنتظره فتاة. يا إلهي، من هذه الفتاة؟

لاحظت روان اضطرابي وسألتني، "ماذا بك يا ماسا؟"

كنت أحس بخدودي تشتعل بالحمرة وأنا أخبرها، "عيد يقف مع فتاة." حاولت هي التخفيف عني بالقول إنها قد تكون صديقة عادية أو شيء من هذا القبيل، لكنني قاطعتها بتوتر، "إنه يبتسم معها وينظر إلى عينيها. عندما كان يجلس هنا، لم يكن حتى ينظر إلي أو يتحدث مثل ذلك."

كانت تحاول أن تهدئ من روحي المضطربة بالقول، "قد يكون متعبًا فحسب." لكن كل شيء بداخلي صرخ، "لا، لا..."

وبعد ذلك وضعت رأسي على الطاولة ولم أتمكن من منع الدموع خلف جفوني. روان بدأت تواسيني بكلماتها الرقيقة ومحاولة للتخفيف عن قلبي الذي تأثر برؤية عيد مع تلك الفتاة.

رفعت رأسي بحثًا عنه لكنه كان قد اختفى.

أجول بنظري في أرجاء المقهى عبر النوافذ الواسعة بحثًا عن أي أثر يدل على مكانه لكن دون جدوى. التفت إلى روان بحيرة وقلق، "أين ذهب عيد؟" تنهدت وهي ترد بنبرة محاولة للتوازن، "لا أعلم. الآن كان عند باب المقهى، ربما خرج ليأخذ قسطًا من الهواء، سيعود بالتأكيد."

بداخلي تنازعت الأفكار والمشاعر، وبتصرف غريزي نبع من دون تفكير، قلت، "أنا خارجة إليه." ولكن روان امسكتني بقوة ونصحتني بحزم، "بالتأكيد لا. هذا سيعطيه فكرة غير جيدة عنك." كانت الدموع قد بدأت تجمع نفسها على حافة جفوني، وها هي تنهمر لتعلن عن حزني وحيرتي العميقة.

خذلتني قواي وأسلمت رأسي على كتف روان، واحتضنتها وأنا أشعر بالامتنان لوجودها بجانبي في هذه اللحظة. رأسي معلق بين اليأس والأمل، بين الخوف والشوق. وسط هذا الزحام من المشاعر، أتساءل، ماذا يحدث بين ذلك الحب الناشئ ومخاوف القلب التي تكبر مع كل دقيقة تمر دون أن يعود عيد .

وبينما أنا غارقة في دموعي، شعرت بنظرة روان تخترق ضباب الحزن الذي يتسلل إلى عيني. "عيد يأتي، امسحي دموعك"، همست بها سريعًا. ولكن الوقت لم يسعفني، وقد شهدت عيوني الباحثة عن الكرامة القادم إليها عيد بسرعة، هو مبتسم، حتى عندما اصطدمت نظراته بنظراتي المترنحة بثقل الدموع، زالت ابتسامته وكأنها لم تكن. اقترب مني بسرعة ونظر في عيني، مشحوناً بالقلق، "ماسا، هل حدث شيء ما؟"

في محاولة لإخفاء الأمر، قلت له وأنا أصارع لأضمد جراح كبريائي بابتسامة معلولة، "لا شيء يا عيد، فقط تذكرت شيئًا حزينًا." لكنه لم يبدُ مقتنعًا، امتلأت عيناه بنار الغضب، ومسك كتفي، وهو يستجوبني بحزم لأول مرة أرى عيد هكذا، "ماسا، ماذا حدث؟ هل هناك من ازعجك؟"

شعرت بالتوتر يكتب قصته على وجهي، "عيد، اتركني." تراجع خطوة وترك يدي، وبدا الاهتمام يلمع في عينيه. "لم يحدث شيء، اهدأ" قلتها وأنا أتمنى لو كانت فعلاً الحقيقة. وقف صامتًا، وبعدها نظر نحو روان التي أيدت حرفي، "لا شيء مهم." بدا لي أنه في حيرة من أمره، وضع يديه على الطاولة وانحنى يفكر للحظات، ثم بدون إنذار مسبق، انطلق خارج المقهى. قفزت من مكاني دون وعي، نادتني قوة مجهولة لأتبعه. روان تلحق بي وأنا أسرع في خطواتي حتى وصلتُ إلى باب المقهى. كانت تلك الفتاة توقفه وتسأله، "ماذا بك؟"

في لقطة من الغضب الذي لم أعتد أن أراه يتفجر مني، مددت يدي متشبثة بعيد وقد سحبته ناحيتي بقوة. وقف مذهولاً، يحدق في يدي التي استولت على ذراعه. تركته بعدها وصحت بصوت يملأه العاطفة، "إلى أين أنت ذاهب؟" وبلهجة مملوءة بالقلق، رد قائلاً، "ماسا، أنت تبكين ولا تريدين أن تخبريني لماذا؟". احتضنت كذبة كي أحمي نفسي وقلت بصوت ثابت، "هناك مشكلة حدثت في منزلي، مشكلة عائلية." واستأنفت البكاء، كاشفة لروان عن عدم رغبتي في التكلم عنها. وأنا أذرف دموعي، اقترب عيد مني، وهو يمسح دموعي ويهمس، "ماسا، لم أكن أعلم. أشعر كأن أحدًا قد آذاك."

في هذه اللحظة، بأحضان الحيرة والقلق المتبادل، تنازعت الأحاسيس بين الوهم والحقيقة، بين الشعور بالغرق في الألم واليأس، وبين الرغبة في الإمساك بخيط الأمان الذي يملّكه لي عيد بصدقه واهتمامه.

كان الأمل ينمو في قلبي على نحو سري، رغبة في حضن دافئ وعميق من عيد يخترق هذا البرد الذي علته روحي. لكن واقع الحياة يجعلنا نستدير عن الأماني أحياناً. نظر عيد في عيني مباشرة وبصوت ملؤه الحنان والرسوخ قال، "يكفي بكاء." وهو يمسح دمعي برفق، كأنه يحاول مسح الألم نفسه.

ألتفت بعيون ترتجف بعد أن سقطت دمعتي
الأخيرة، إلى تلك الفتاة؛ كانت تقف هناك تنظر
إلينا. رفعت يدي لأمسك بيد عيد وأطمئنه، "أنا
بخير، لا تقلق." وبعدها، ذهبت على الفور
لأغسل وجهي وأمحو آثار دموعي التي تركت
علامتها على خدي.

ابتعدت قليلًا وبقيت أراقب من بعيد، قبل أن ألتفت
لأغادر، رأيت عيد يبتعد وتلك الفتاة تلحق به.
لوهلة شعرت بالغيرة تتنهد داخلي بأنات عميقة، "يا
إلهي، لو يمكنني أن أقتل أحدًا..." مر أمام
عيوني خيال غيمة سوداء، لكنها تبددت سريعًا.

روان جاءت تهدئ من روعي وتقول، "لماذا سحبتيه من يده بقوة عندما كان يقف مع تلك الفتاة؟" استفسرت روان بصراحة. "شعور لا إرادي تملكني"، كانت إجابتي مباشرة وصادقة.

جاءت استجابتها بسؤال آخر، طافح بالمنطق، "وماذا لو كانت أحد أقاربه؟" نظراتي التي تحمل عُرف الغضب الصامت أجابت بكل ما في داخلي، "لو كانت أحد أفراد عائلته، لن يقف معها بتلك الطريقة." صرخت الغيرة داخلي بصوت متوحش، وأنا أحدث نفسي "أريد قتلها."

روان، تلك الصديقة التي أعطتني الأمان بحضنها، امسكت بي وحاولت تهدئتي. جسدي رجف وأنا تحت وطأة موجة من الأحاسيس الجامحة.

ما لبثت روان أن قطعت حاجز التردد وقالت بيقين "يا ماسا، هذا ليس تعلقًا فقط." صدمتني كلماتها، ورد فعلي كان نظرة استغراب لها، مثل من يواجه حقيقة لأول مرة. "أنتِ تحبين عيد."

الحلقة السادسة والعشرون:

فهم الحقيقة غلط

عيد:

بينما كان الشوق يتقاذف أضلاعي، تدفقت إليّ أسئلة جمانة كموجات تحاول كسر سد الإنكار.

"من هذه الفتاة؟" سألتني وكأنها تُحاول قراءة المسكوت عنه في عيوني.

"إنها صديقتي المقربة،" هكذا قابلت استفسارها، لكن بدا أن هذا لم يرق لها. انهالت الأسئلة كقطرات مطر في موسم الغموض، "ألم تلاحظ بها شيء؟"

"شيء مثل ماذا؟" كنت مثل الطائر المحلق بعيدًا عن عشه، الذي لا يريد الالتفات إلى ما خلفه.

بيقين غامض، أطلقت جمانة كلماتها كالسهام، "الفتاة مغرمة بك، إنه واضح." وكأن هذا الوضوح كان ضبابًا يعميني حتى تلك اللحظة. اضطربت مشاعري بين صدمة وإنكار، "مستحيل أنتِ لا تعرفيها."

وفي خضم دفاعي المتهالك، تردد صدى أفكاري الداخلية، "أشعر وكأن هناك أساسًا شابًا في حياتها،" وكأن هذا الاعتقاد يخفي خلفه أمنياتي الخاصة، وأوار قلبي الذي بدأ يتصدع. نظرت جمانة نظرة استغراب "هل أنت تحبها يا عيد؟" تلك النظرة كانت كما لو أنها استكشاف لأرض مجهولة في قلبي.

شعرت بعدم الارتياح لهذا الكشف وترددت، لكن في النهاية اعترفت "أجل، منذ زمن بعيد أحبها." كامواج بحر هائج، شعرت بتغير ملامح جمانة وكأنها الخيبة تحلق بأجنحة الوقت.

وهناك، وسط هذه المعادلة المعقدة من الشعور والاعتراف، جاءت ماسا، صورة القوة والضعف في آن معًا. جاءت ابتسامتها مثل شروق شمس بعد ليلة مظلمة، ومع جمانة التي تمد يدها لتسلم على ماسا، تبادلوا التحيات والأسماء.

اقترحت ماسا أن نجلس في الداخل ورغم اعتراض جمانة، إلا أن ماسا أصرت "لا، تعالي واجلسي معنا". وافقت جمانة بتردد، وهكذا بحثنا عن طاولة وجلسنا، أنا بجانب ماسا، وجمانة إلى جانبي الآخر.

بينما انضمت روان إلينا وجلست بمقابلنا، بدأنا نتبادل الأحاديث. لكن قلبي كان ثقيلًا، مشحونًا بعدم الراحة؛ فلم أكن أريد لماسا أن ترى جمانة، أخشى أن تأخذ فكرة خاطئة عن مشاعري.

ومع كل لحظة تمر، تحاول جمانة بكل بساطة وبراءة أن تُذّكرنا بأيام الطفولة، كلمات تُرسل إلي رسائل الألفة والقرب، لكنني أعلم أن ماسا ربما لن ترى في ذلك سوى سيناريو مختلف، ترى كيف لقلبي أن يشرح لها هذه المسألة المعقدة دون أن يجرح؟

ماسا:

كان الأمر كمجالسة الشوك، كل حكاية تقصها جمانة تطعن قلبي بألف سهم. روان ونظراتها العميقة تجاوزت كلمات اللسان؛ فهي تفهمني أكثر من أي وقت مضى.

لم تكد جمانة تنهي حديثها المؤلم على الأقل بالنسبة لي عن ذكريات لولا القدر لكنت أتمنى لو لم توجد، حتى قالت لي روان بصوت رقيق، "ماسا، ما رأيك أن نتمشى قليلاً؟" وبصوت خافت صدح من داخلي، "لن أتركهما معاً لوحدهما." ولكن روان أصرت قائلة "أريد فقط أن أقول لك شيئاً واحداً على انفراد."

خرجنا من المقهى، وهناك في الخارج، قالت روان "يا ماسا، حاولي أن تنسي عيد، أشعر وكأن هناك شيء بينه وبين جمانة." لم تكمل روان كلامها حتى شعرت بالدموع تغزو عيوني. "لكن لا تحزني، فقط أخاف عليكِ وعلى مشاعرك."

كان البكاء يقف خلف جدران عيني، مستعداً للانهيار.

"كلامك صحيح، سأحاول أن أنسى." بدا النسيان كجبل يتعين علي تسلقه بلا حبال.

"ابتعدي عنه كلياً كي تنسي." قالت روان برفق عجيب.

لكن كلمة "مستحيل" انطلقت مني دون وعي، "سنبقى أصدقاء، لكن أن نكون أكثر من ذلك أشعر أنه صعب جداً."

العودة إلى الطاولة كانت كالرجوع إلى أرض المعركة، وجدنا جمانة وحدها، تتصفح هاتفها. الجلوس والسؤال عن عيد جاء بتلقائية، "أين عيد؟" وهي ترد "لا أعلم، إلى أين ذهب؟" قالت أنه سيعود بعد دقيقتين.

بدأ القلق يزحف مثل ظلال الليل، وأنا أتطلع حولي، يميناً ويساراً، لا أجد من أبحث عنه؛ لا أجد عيد

عيد:

بينما كانت الأصوات تشتت انتباهي، طالعت من بعيد يداً تلوح إليّ. إنه يزن، كأنما ينقلني بسحره لجزيرة الأصدقاء الغابرة. "دقيقتين وسأعود،" قلت لجمانة. وبخطى متثاقلة تقدمت نحو تلك الطاولة.

"إلى متى سنبقى كذلك؟" كانت هذه هي تحية يزن، الغارقة في موسيقى الشوق. "أنا لا يوجد لدي أي مشكلة معكم، لكن..."

الجدل مع يزن كان كالعزف على أوتار الواجب والمحبة. "يجب أن تفهموني، أنا أحب ماسا ويجب أن أبقى معها في هذه الفترة."

كالماء الجاري بين الأحجار، حاول يزن أن يجعلني أتذكر "نحن أصدقاؤك أيضاً." ابتسمت، ووعدته بمحاولة توازن القلوب.

بعد الذهاب إلى الطاولة ومقابلة عمار ودانيال وذاك الشاب المجهول لي بعد، اتخذت طريق العودة إلى حيث كانت أوراقي المبعثرة تنتظر ترتيبها.

رأيتهم جالسين، واستقبلتني عينا ماسا بتساؤل صامت وابتسامتها التي تشتهي الإجابات، "أين كنت؟"

"كنت أتحدث مع أصدقائي." جلست بجانبها وألقيت التحية، وبدأنا نتحادث برفقة الذكريات.

عندما أشارت روان إلى الوقت، وذكرت ماسا بضرورة الذهاب للمحاضرة، شعرت بتردد ماسا يسكن الفضاء. "هل ذلك إجباري؟" قالتها بنبرة خفيفة الشكوى.

أكدت لها روان الضرورة، فنظرت ماسا إلي تبحث عن مشاركتي في الحضور. "لا يوجد الآن لدي شيء، لنذهب."

ومن هناك، وجمانة برفقة أصدقائها تذهب ونحن إلى المحاضرة، تنهدت ماسا بتلك المزاح الخفي، "جمانة لديها أصدقاء ولا تجلس إلا معك."

أعقبت بنبرة تمزج الجد والصدق، "أنا لدي أصدقاء ولا أجلس إلا معك." ومع جوابي، ارتسم على وجهها الإقتناع، لكن لم يكف هذا الكلام عن إثارة المزيد من التساؤلات في رأسها.

بينما كنا نسير باتجاه المحاضرة، نسجت ماسا تعليقًا آخراً بخيط من القلق، "أشعر وكأن جمانة متعلقة بك كثيرًا."

رددت عليها في محاولة لطمأنتها، "لكن لم تراني منذ زمن بعيد جدًا." وها نحن وصلنا للمحاضرة، أخيرًا

تسربت أصوات المحاضرة كخلفية صامتة في مسرح من الأفكار الشاردة؛ قلبي معلق بين ضلوعي يرتجف.

وكيف لا يحترق الفؤاد وهو يحمل لهيباً اسمه ماسا، الفتاة التي اختارها من بين الكل لتكون محط الأنظار وموطن الأحلام؟ ولكني أسير خوفاً مقيّد اللسان، خوفٌ من أن يُكسر الجسر بيننا إذا ما تكلمت فصرت أخفي في القلب كلمات الحب.

الوجدان مكتوم وها هو يرتعش عندما اقتربت ماسا، رصدت عيناها التفاتة فكري المنصرف. برقة لكن بثقة سألت "بمن تفكر؟" السؤال الذي يُطوق الأنفاس. "لا أحد. . ."، أجبت بكلمات تبددت في الهواء، محاولاً إخفاء حقيقة شعوري المتأججة.

"هل جمانة؟" زادت الجرح بعمق، وكانت تلك هي الضربة القاسية التي لم أرتب لها الدفاع. نظرت إليها وكأن الخيانة قد تسربت من بين السطور، نظرة صادمة، تحمل قيدها غضباً خفياً لا تفطن له إلا نفسي المنكوبة. وإذ بسيل الألم يفيض على محياي، ويختصر كل الحكاية.

بحالة ضياع، استأذنت ببحة صوت مختنقة من المعلم للخروج، وأطلقت لقدميّ سراح الخطى نحو الخلاص المؤقت من الأنظار. مرسلاً نظراتي المتثاقلة نحو أروقة الكلية التي تفتقد لمواساتي.

في الحجرة الخلفية حيث نقاط الماء كانت تتردد، وأنا أغسل وجهي الشاحب بماء الواقع المثقل بالأسى.

وكأنني أحاول غسل عني أطنان الشك واليأس.

أجد لنفسي مكاناً زاوية على السلم، حيث جسد يلتف على نفسه كأنه يحاول تهدئة روحه المتعبة. وتنفست الصمت المؤلم، وأنا أضع رأسي على ركبتي وأغمض عيني ناظراً إلى العتمة التي تعكس ضجيج أفكاري.

بحر الأسئلة يتمرد ضد شواطئ عقلي، هل مجرد صديق أكون في نظر ماسا؟ هل لا تحسّ بنبضات قلبي التي تُناديها بلا صوت؟ كيف لها أن تظن أن جمانة هي من يشغل فكري؟ وها هي دموعي تفضح ما أُخفي، تتساقط وحدها دون إذن، إذ لم يعد باستطاعتي السيطرة على شراع الأحزان. وبين حنين يعتصرني وشوق يحترق بداخلي، أترقب فجراً يضيء متاهات قلبي بنعمة اليقين.

ماسا:

زلزال الخوف بداخلي يتصاعد. كانت بادرة ندم لاذعة قد ملكت عقلي فورًا بعد أن أطلقت تلك الكلمات العابثة في وجه عيد. لم تكن سوى محاولة للمزاح، لكن سرعان ما أدركت أن بها نزعة غير مدروسة، شوكة قد يجرح بها القلب قبل الأذن.

وجهي المتورد، بعد الصدم، هو خريطة الأحراج الذي يعتصرني. كانت حرارة اللوم تنبعث من خدّي كما النار يتلظى تحت رماد الأسف. حتى في نظراتي الشاردة نحو روان، التي تحملت تبعات هذا العتاب بصبر، كان هناك إيقاع ألمي الشخصي الذي نغّص صفو الوداد.

حينما خاطبت روان قلبي الخائب بصوتها ذو الحنين المهدئ قائلة "ما قمتِ به خطأ"، انهدّت أسوار غروري وتبددت، وأودعت رأسي في أحضان المقعد الأقرب إليّ كملاذٍ أخير، وإذ بالنوم يأخذني والأحلام تستقبلني في عالمٍ آخر.

في عالم الغفوة، رأيته فجأة: عيد يعبر الأرض الترابية وأنا أراقبه من مسافة آمنة. وكانت هناك لحظة حيرة حيث اختفى عيد مثل لمحة خاطفة أدخلتني في تيه، وكأن شيئاً ما ابتلعه الأفق. تسللت أقدامي نحو ذلك المكان الذي فقد فيه عيد صورته، وإذ بي أعثر على سرٍّ جالسٍ على التربة: ورقة.

حاولت يدي أن تستجمع ما تبقى من شجاعة لفتح ذاك السر الورقي، وإنما قبل ذلك كانت روان قد دفعتني إلى عالم اليقظة بندائها المتسائل، "هيا يا ماسا، انتهينا."

الصدمة ترسم معالمها على وجهي فور استيقاظي؛ العينان المحمرتان، اليدين الناعمتين ترتعشان. ومع هذا التشوش الفجائي، انطلق السؤال العنيف من روان "ماذا بك يا ماسا؟" أما أنا فقد فضلت الصمت، فملامحي وحدها كانت تبوح بما بداخلي من اضطراب.

عند خروجنا من بوابة الكلية، قادني قدري لأرى عيد متشحاً بوحدته، جالسًا ورأسه المطأطئ يرتاح على ركبتيه. وبغير وعي، أطلقت قدميّ نحوه كأنها تستنجد به، تركت روان ورائي تتبعني بندائها، "اتركيه". لكن كلماتها سقطت على أرض خصبة من العزم وأنا أركض إلى جانبه، أجلس ورأسي يصرخ بالأسئلة التي لـم تجد طريقها إلى اللسان.

عندما وضعت يدي على كتفه، هو رفع رأسه ليتجلى أمامي رجل غارق في بحر حيرته. عيناه الحمراء كشهادة على جراح لا يعرفها سوى قلبه، وجهه الشاحب كمرآة تعكس عمق إحساسه المهمَل.

"عيد، هل كان مزاحي ثقيلاً؟" خرج السؤال مترددًا، ومعه اهتز كياني كله. صمته أولاً، ثم رده القاطع "مزاحٌ ثقيل جدًا..." جمع فيه كل الجدية التي كان يحملها.

نهض وغادر، وما كان مني سوى أن أتبعه بقلب محطم يرجو الصفح والتفهم. روان التي كانت دائما جنبي، أمسكتني قبل أن أطلق لنفسي العنان لملاحقته، "لا تلحقي به"، احتوت صوتها فيه كل معاني الحزم.

ارتجالي "أنا من أخطأت وليس هو، أنا!" خرج كصرخة ألم مجروحة. "لنتحدث فيما بعد، دعيه الآن، نسيانه الأفضل"، كانت تحاول تهدئتي ولكن ما بالقلب كان أعمق وأبقى.

استسلمنا لجلسة بعيدة عن صخب المقهى، وسكبت لروان معين أسراري المعتصرة. سردٌ للحلم العجيب الذي جمعني وعيد في تراب الأعماق. تساءلت "ورقة؟" أسكنني استفسارها لدقائق، ثم أجبت.

كلما أتذكر ورقتين الأماني التي خلّفناها وراءنا تحت التراب ، وعدًا بيننا أن لا ننبش في أسرارها. وحينما قالت لي "لماذا تهتمين؟ أنتم وعدتم بعض بعدم فتح اي ورقة منهم أليس كذلك؟"، غمرتني كل تلك الأفكار والمشاعر و الأسئلة.

وضعت رأسي المثقل على كتف روان التي استقبلت حزني بين أحضانها. شعرت باليأس والأسى، وغفت عيوني على ذلك الدعم المعنوي الذي لم يخذلني.

الحلقة السابعة والعشرون:

سأعترف

عبّرت ظلال الشفق الباهت عن نفسها بإصرار، تحث خُطانا نحو الموقف حيث يقف الباص الذي ينتظرنا، معلناً نهاية يوم دراسي آخر. كانت الشوارع تعج بصخب الحياة المتجدد، بينما نحن نخفق في السير بها كنغمات متعبة من مقطوعة طويلة.

بينما كانت الأفكار تتلاطم في ذهني كأمواج بحر هائج، قلت لروان بنبرة حاسمة تحمل بصمات القرار "يجب أن أقول لعيد إنني سوف أعود" . كان هذا أقل ما يمكن أن اقدمه كجسرٍ لإعادة بناء ما هدمته كلماتي السابقة.

روان، التي بدت دائماً تأخذ الأمور بخفة، ألقت نظرة استفزازية تجاهي وردت بسؤال "هل هو حبيبك حتى تقولي له؟ ليس من شأنه". كانت كلماتها تباغتني كعاصفة لم أكن مستعدة لها.

الغضب غلف صوتي وأنا أرد، مدافعة عن الألفة التي جمعت بيني وعيد، باستنكار "إن كان حبيبي أو صديقي، فهذا لا يهم، نحن نتشارك هذه الأشياء وهذا عادي، لا علاقة للحب بذلك!" كانت كل جملة تخرج مني كسهم يسعى للدفاع عن حقيقة علاقتنا.

تراجعت روان قليلاً، أدركت على ما يبدو أنها قد تجاوزت الخط بتساؤلها. "كما تريدين" جاء ردها، لكنها سرعان ما أضافت "لكنه يشعر بالغضب منك من الممكن أن لا يجيب على هاتفه أو يفصل".

كنت مصممة على أن أثبت لها أنها مخطئة، ان لم يكن لشيء فمن أجل الثقة التي بنيت بيني وعيد، قلت بثقة وقد نفضت عن نفسي شعور اليأس "لن يفعل ذلك!"، وباستعجال نبيل اخرجت هاتفي، مستعدة لأتصل به وأشرح ظروفي، لأبلغه بآخر أخباري وبأن قلبي يحمل التوبة والندم.

في لحظة تلك الحركة المندفعة وكأنما كانت السماء تستجيب لإصراري للتواصل معه، قالت لي روان برفق شديد متبوع بإيماءة ظهرت كومضة محترمة "هذا عيد".

في تلك اللحظة، وقف الزمن قليلاً وانكسرت جميع الحواجز، كان عيد هناك، يقف بصمت ويستند على الحائط، بنظرات ربما تبحث عن إجابات كما كنت أفعل. التقت عيوننا من بعيد، فأحسست بخفقان قلبي يتجاوز الأصوات المحيطة بنا.

التفت إلى روان وأنا أضع يدي على قلبي، في محاولة لاحتواء التسونامي العاطفي الذي بدأ يتفجر بداخلي، قلت لها بصوت عال نسبياً محمل بالتردد "سأتخذ خطوة..."

قاطعتني روان بهدوء، تحتضن جميع حواسي بنظرة فهم "سوف ماذا؟"

تنهدت بعمق، كمن يخرج من أعماقه الأمواج المتلاطمة الكلمات، "لا أعلم ماذا سأقول لك..."

أصرت روان "تحدثي،" فبدون تردد أطلقت كلماتي "سأبوح له باعتراف قلبي، سأقول له عن شعوري وعن حبي له..."

امسكتني روان بقوة وكأنها تحاول إبقائي في واقعنا المرير "حمقاء؟؟؟" صدمتني كلمتها، وقلت "لماذا؟"

حينئذٍ سددت إليّ روان برصاصة الحقيقة "هل ستعترفي بحبك لشخص أنت تعلمين أنه لا يراكِ سوى صديقة؟ فكري جيداً، عندما قلتي له هل تفكر بجمانة كيف توتر وخرج مسرعاً. هو يحب جمانة."

تلك الكلمات زلزلت قلبي، وقلت بصوت صرخة لا إرادية "من قال لك أنه يحبها؟!" جاءت روان لتخفض من حدة الوضع "اخفضي صوتك، سوف يسمع.. ليس من الضروري أن أحدٌ يقول لي، فهو واضح عليه."

وهنا شعرت بالحبة الثقيلة تأبى إلا أن تترقرق على جفني، وأومأت برأسي "سأذهب وأخبره أنني سأعود للمنزل الآن." نظرت روان إليّ، وبرجاء قالت "إياكِ والبوح له بحقيقة مشاعرك." شعرت بقلبي يستسلم وقلت بأسى "اتفقنا."

تقدمت نحو عيد، وكل خطوة كانت تحمل جزءًا من روحي، مستعدة لمواجهة ما تخبئه الأقدار.

مع اقترابي منه، تتسارع نبضات قلبي وأتنفس عبير هذه اللحظة المشحونة بالمشاعر. كان يراقب خطواتي نحوه بنظرات تخترق المسافات التي فصلت بيننا. وعندما وقفت أمامه، شعرت بعيونه الفياضة بالحزن تحيطنا كوشاح يحمل قصص الليالي وآهاتها.

اقتربت من عيد وبحروف متزاحمة آهتزت بها أضلعي

تمكنت أن أقول "عيد . . ." انتابه الاستفهام فتحرك

رأسه بدون أن يتفوه بكلمة.

استشعرت ألمًا يختبئ تحت جلد الأيام فسألته بلهفة الأشواق

"هل أنت حزين مني؟" فأجاب بصمت الأنظار أولاً، حتى

انحنى الرأس إلى الأرض واغمض العيون، كأنما يبحث

عن ردود في تلافيف الصمت، وبعد لحظات قليلة، انساب

صوته كنسيم حزين "لا يا ماسا".

أمواج القلق سُكبت بعيونه الحمراء، فلاشعورياً مددت

يدي "ما أصاب عينك؟" سألته متجاوزة كل الحدود،

ولكنه آثر الصمت من جديد "لا شيء، لا تقلقي."

عزمت أن أكسر الحواجز بيننا فقلت "عيد، سأقول لك شيئًا. . ." فنظر إلي وقال "قولي، أسمعك."

كانت الكلمات على شفاهي "عيد، أنا. . ." ولكن قبل أن أتمها، هطلت الدموع كمطر يعقبه الصفاء، تذللُ فيها كل الأحزان أمام هيبة المشاعر. توغل عيد في مساحتي الشخصية، قائلاً بهمسة تمتزج بالعطف "ماسا، لماذا تبكي؟" وشرع يمسح دموعي بلطف منقطع النظير.

رفع رأسي نحوه، وبدا القلق يتراقص على ملامحه "ماذا يحدث يا ماسا؟" وكنت فوق طوفان الحزن أعترف له "أنا آسفة يا عيد لما حدث منذ قليل بالقاعة. . ."

قطع عيد دائرة الحزن، مبدياً جبل صبره "لا عليك ماسا، أنا لست حزينًا، لا تبكي."

هدأت نفسي قليلاً وأخبرته "أنا سأعود إلى المنزل." عرض عيد مرافقتي، ولكن روح الواجب واستدعى ضميره "هل أعود معك إن كنتِ تريدين؟"

سألته "هل لديك شيء؟" فصرح باقتضاب "لدي محاضرة، لكن لا عليكِ."

كنت حريصة على احترام مسؤولياته "لا، بالطبع ابقَ، حتى تنتهي."

ودعني بكلماتٍ كان لها وقع عميق في قلبي "انتبهي على نفسك." وتمكنت أخيرا من ابتسامة خفيفة "حاضر، هل تريد مني شيئًا؟" فأجاب "سلامتك."

حملت معي كلمات الوداع وروح التواصل "انتبه على نفسك."

وها أنا ذا أتجه نحو روان، ونحن نصعد إلى الباص، تحملني خطواتي وقلب مثقل بالقرارات والآمال المعلقة.

استلمت السكون والهمسات المتعبة لجدران الباص المتحرك ونحن نتخذ مقاعدنا، الفكر في رأسي لم يكن له إلا هيمنة الشتات، وكأن كل شهيق يفتقد لجزء من أوكسجين الوجود، وكل زفير يخرج باحثًا عن متنفس من الضيق الذي يعتصر الصدر.

ثمة شئ بداخلي كان يغلي، كالماء في إناء على نار الضوء وحديثها الملتهب. وروان، رفيقة الدرب، نظرت إلي وهمست بسؤال يعلم هو الآخر متاهة الجواب، "ألا تريد نسيانه؟"

بعد لحظات من التأمل العميق، كنجمة شاردة في سماء أفكاري، لم يكن من كلمات تخرج من قلبي سوى الصدق المر، "كيف لي أن أنسى وقلبي لا يريد؟ أحبه يا روان..."

وكالطير المتعب الذي يجد أخيراً غصناً للراحة، استسلمت للنوم على كتف روان الدافئ الذي كان أكثر من مجرد كتفٍ، بل كان قطعة من السلام.

مضت الدقائق كأمواج بحر، تأتي وتذهب دونما توقف، وروان توقظني، "استيقظي لقد وصلتي." تمالكت وعيي المتثاقل ونظرت حولي حينها، سائلة فضولاً متمازجاً بالغياب،

"هل وصلنا؟"

بينما كان الشارع يرمقني بكل مواعيده وذكرياته، قلت لروان بهفوة لا تخلو من الرغبة في مشاركة لحظة

"انزلي معي."

حين سألتني "لماذا؟" كان قلبي ينبض بحاجة لتجسير عالمين،

"أريد أن نفعل شيئًا." ثم قالت روان كمن يقرأ الأفكار

"هيا إذًا، لننزل."

وهكذا، وكأن كل خطوة كانت تبتعد بنا عن الباص،

كان في الواقع تقرّبنا أكثر إلى بداية ما، أو ربما نهاية أخرى،

لقصة لم ترو بعد.

يزن:

كان اليوم هادئًا نوعًا ما، لكن هناك دائمًا ذلك البهتان الذي يطفو على سطح الروتين. مع أصدقائي عمار، دانيال، وكريم، نتشارك الضحكات والمزاح الذي يعزز أواصر صداقتنا.

فجأة، أظهر عيد ملامحه المتعبة بين الحشود، ورحبت به متحمسًا، "تعال، انضم إلينا!" لاحظت عينيه الحمراوين والإرهاق الذي يشوّه معالمه. بدافع القلق المتنامي، سألته باهتمام "ماذا بك يا عيد؟" وكان رده بسيطًا وهو يعتصر الهدوء "لا شيء، لا تقلق."

سند رأسه على الحائط وأغمض عيونه، وقد بدا وكأنه في حالة من الاستسلام لمشاعره المضطربة.

كسر عمار الصمت بخفة دمه المعتادة، محاولاً تخفيف حدة الموقف "أشعر وكأنك شخص آخر يا عيد."

فتح عيد عيناه ببطء، مواجهًا الحقيقة التي يخفيها، "وأنا شاعر كذلك... شخصٌ لا يطيق العيش، يتمنى الموت، فاقد للشغف وملذة الحياة."

الكلمات خرجت مثقلة بالأسى، عيناه مشارفان على الدموع. اقتربت منه محاولاً تقديم بعض الدعم "يا عيد، لا شيء يستاهل أن تفعل بحالك هذا."

"لستُ أنا من يتحكم بنفسه، قلبي هو من يقودني." لكن سرعان ما تبدلت معالم وجهه، كمحاولة لإعادة الأمور لنصابها المعهود "لننسى ما قلته، وأرجو أن تعذروني يا شباب." مع ابتسامته الوهمية التي جاهدت لإخفاء ما بداخله، عرفتهم بعض وتواصل الحديث.

أضاف دانيال "لقد عرفته عن نفسي وتحدثنا قليلاً، لكن كريم، الآن حتى جاءت الفرصة ليتحدث معه." مد كريم يده بحفاوة وصدق "تشرفت بك يا صديقي."

ثم استمروا في الحديث، محاولين زرع بذور الطمأنينة في قلب صديقنا المتعب. كنا نعلم جيدًا أن الكلمات قد لا تكون كافية، لكن الصداقة تعني أن نكون هناك، حتى حين تخوننا الكلمات وتفشل في التعبير عن أعماق القلوب.

الحلقة الثامنة والعشرون:

بقع الصمت

ماسا:

تقطعت أنفاسي مع كل خطوة تفصلني عن هدفي الغامض، وروان بجانبي تسابق الرياح بخطاها الفضولية، متسائلة عن وجهة هذه الرحلة المفاجئة.

"إلى أين نحن ذاهبين؟" كان صوتها يحمل ظلاً من الترقب.

وبهمسة ماكرة أجبتها "الآن ستعلمين..."

تماوجت الخطى بنا حتى أتاحت لنا حديقة المدينة أبواب الذكريات المنقوشة بين أركانها، وهرعت إلى شجرةٍ قديمة كأقدم الأسرار مكشوفة لنور الصباح.

"انظري إلى اسمي المنحوت، نحته منذ زمن طويييل." تردد صدى كلماتي بين الأغصان، وكانت نبرتي تحمل ثقل السنوات الماضية.

روان، بملامح الحيرة تعتلي وجهها، لم تخفِ قلقها "ولماذا أتينا إلى هنا؟"

أشرت لها أن تجلس بجانبي، وبينما نحن منخرطين في صمت الحديقة، لامست كلماتي أذنيها "هنا دفنا أوراقنا أنا وعيد..."

وكشفت لها تلك الخطة التي راودتني "اتمنى لو كان ما يدور ببالك يختلف عن توقعي."

مع ابتسامة تلتسن من بين الأسى والأمل، قلت لها بنبرة أكثر إصرارًا "أريد... أريد رؤية ماذا كتب عيد..."

عمار:

كنا نحتسي قهوتنا بروتينية كل يوم، حيث تبدو الوجوه مألوفة والأحاديث متشابكة بالأدران اليومية، عندما قطع عيد الصمت بسؤاله المباغت "يا شباب، لم تملون من المقهى؟" كانت ابتسامته وكأنها تقلب صفحة الحكاية إلى مشهد جديد.

رد يزن بحماس ظاهر "أجل، كثيرًا. لم لا نخرج ونتمشى قليلاً؟" فأتيحت لنا فرصة لكسر الرتابة.

سألت عيد عن محاضرته المقبلة، وبردّ بارد أخبرنا أن لديه نصف ساعة، فأومأت موافقًا واتجهنا خارج نطاق أسوار المقهى.

دانيال، بفضول معهود، استفسر من عيد عن المواد التي يدرسها وهو شغوف بالتعلم. وبينما نحن نجلس في أحد الكليات، أثار عيد الفضول عندنا جميعًا بقوله إنه سيذهب لجلب شيء من خزانته، فأعلن يزن عن رفقته. تبقى أنا ودانيال وكريم نقرض على عود أحاديث الجامعة، وتفتح خيوط الفكر لنسيج خطة نزهة خارج الجامعة، لتملأ رئاتنا بنسيم يخالف هواء القاعات والمحاضرات.

مر عشر دقائق لم تكن كغيرها حيث فاجأنا عيد بركضه الهوجاء، يدك الدرج كمطارق حائرة، يهوي منها في ثوانٍ معدودات، وها هو يتسرب من أبواب الكلية كظل يطارد الوقت.

وقفنا مدهوشين، لكن سرعان ما هزّنا صوت يزن "تعالو بسرعة!" المتلهف وهو يلحق بعيد. تعلق السؤال في أذهاننا بهلع "لماذا؟" ولكن الأقدام لم تنتظر الإجابات.

ركضنا نحو مجهول، تحت سطوة الإلحاح، خارجين من حرم الجامعة، متجهين نحو الباص، بهمةٍ وتكاتف نحملها كأهل البيت الواحد.

التوتر يلتف حولنا كسحبٍ بلا مطر، تنبئ بالكثير لكنها لا تسقط شيئاً، ومازلنا نجري، لا نعرف لماذا، فقط نلحق بهم، أملاً في أن نكتشف ما غمض عنا من أسرار هذا الهرولة الغريبة.

عيد:

دفعت باب الخزانة القديمة برفقة يزن، ورائحة الغبار المنبعثة تُذّكرني بطقوس تبدو وكأنها من حقبة أخرى. تتحسس حتى تصل لذاك العلبة بالأحرى. علبة السجائر، التي تقبع في زاوية الخزانة، كما تركتها آخر مرة، ولم أاخذ منها سوا سيجارة واحدة فقط قد فقدت من بين أخواتها.

"أتيت لكي تأخذ علبة السجائر؟" استفهام يزن انزلق بإيقاع المداعبة والسخرية البسيطة.

"أجل."، صوتي محمّل بحنين لم أكن أعلم أنه بي.

"يا لك من أحمق..." ردّ يزن مع ابتسامة طوّقت ثغور شفتاه. صدى ضحكتي البسيطة خلف الحواجز، انخرط في اللحظة، وأنا أمتد بيدي لأغلق الخزانة، لكن عيني انتقت ورقة، كانت كالنواة بين الرمال، تجذب الانتباه بين الدفاتر والأقلام.

ورقة! تعلّقت بها أسئلة كثيرة، "الله يستر بنا" بدت كلمات يزن كأنها تنذر بعاصفة قادمة، صوتي المرتجف طلب منه فتح الخزانة، يداي لم تعد تطاوعني.

بينما يزن يمد يده لينزع الورقة من قبضتي ويبدأ في قراءة ما تخفيه، توقف قلبي. "أين ماسا؟" كان السؤال الذي اخترق صميمي، ارتفعت أصوات نبضاتي كدقات طبول الحرب.

عيناي تزلزلتا وصوتي تحشرج بقوة في حلقي "ماذا يوجد على الورقة؟" وأقدامي تبحث عن أساس يمكن أن تستند إليه، وأنا أمسك الورقة بين يديّ بسرعا

'خطف' 'حديقة' '3:33'.

"بسرعة، متى يوجد باص؟" قلت والقلق يرتسم على وجهي.

"على الساعة 2 : 30" جواب يزن كان مثل نجمة تضيء

في ليل مظلم، الساعة أقدمت لـ 2 : 20، ركضت

كمن يطارد الزمن، يزن يصطاد أذيال خطاي.

لم أرَ ما حولي، كل شيء تمركز حول فكرة

واحدة: "علي أن أصل!"، وبثورة أنفاسي المتسابقة،

صعدت للباص في عجلة من امري، وبعد استدارة قصيرة،

هناك كانوا: يزن، وعمار، ودانيال، وكريم،

يستخدمون أخر قواهم لكي يلحقوا بي.

بمجرد ما أن جلست، وجدتهم قد انضموا إلى رحلة

الغموض هذه. عمار، بأنفاس تزفر الإرهاق، ألقى عليّ

السؤال "ماذا يحدث لك؟"

انفتحت شفتاي لكن الكلمات عجزت، فمددت

الورقة نحوه، وهو بدوره قرأها ورفع عينيه نحوي "أي

حديقة تعرفها؟"

أطلقت الكلمات كالنار "لا يوجد غيرها، تلك التي

ذهبنا إليها أنا وهي... هي لا تذهب لغيرها." وأصبحت

كل ثانية معصورة من الزمن، الباص انطلق، وأنا أجلس

مع أصدقائي والدقائق تطوف حولي بثقل.

ماسا:

كنت هناك، مع روان، حيث حاذى أفق الحديقة الخلاء. رغبة راسخة في معرفة محتوى تلك الورقة التي أمسكت بها أنامل عيد آخر ما شاهدته منه، شغف لا يعرف الصمت.

"روان، أريد فقط النظر إلى ما كتب عيد، لن يعلم أحد،" حاولت إقناعها بصوت يحمل الفضول كطفلٍ يسأل عن النجوم.

لكن روان رفضت بحزم، "يا ماسا، لا يهم إن عرف أحد أو لم يعرف؛ ما يهم هو أنت، وكيف ستشعرين بعد رؤية الورقة. قد يكون هناك شيء لن يروق لك."

نظرتي الشاردة إلى الأرض لم تكن سوى هروب بعيدًا، "لا يهم،" أزفر العبارة والقلب يدق.

وفيما كنت أحاول أن أرتب أفكاري، قاطع صمت الحديقة صوت قاطع "توقفي في مكانك."

حركة روان كانت حازمة حينما أمسكت بيدي، تحذيرها اختلط مع تلك الأصوات المبهمة.

استدرت لأرى ثلاثة أشخاص يلوحون بالسلاح، يقفون وكأنهم كوابيس ارتدت لبوس الواقع، "إياك والصراخ!"، الأمر صدر كنقيق تحت ضوء قمر خسوف.

قبل أن يخرج الصرخ من بين شفاهنا، انقضوا علينا .

أياديهم تغلق أفواهنا وصراعنا المعبّر بمقاومة العظام

يسقط أمام تهديد الفولاذ .

أُجبرنا على السير، كل خطوة تحت وقع الخوف

والفزع، حتى أنزلقنا إلى داخل سيارة كبيرة حذرة

تنتظر.

مربوطي اليدين، وشفاهنا حُظرت عن الكلام .

السحر، تلك المكيدة التي كانت تطفو حول

أفكارنا، تلاشت لتحل محلها الواقعية المخيفة التي تملأ

كل شبر في السيارة المسرعة نحو مصير مجهول .

عيد:

اللحظات كانت تسقط وكأنها حبات رملٍ في ساعة زجاجية لا تنتظر أحدًا. رصدت التوتر في عيون من معي، الساعة تشير إلى 3:25 مساءً وكل شيء أصبح معلقًا على خيط رفيع من الأمل. يزن، الذي كان يرتدي دور المتفائل دومًا، خانه تفاؤله وأعلنها مستحيلة، "لن نلحق!" شعرت بشتاتٍ يزاحم أفكاري وأنا أخبط جنونًا على الكرسي أراقب الطريق، فجأة، كورقة تُقلب، استحضرتُ فكرة: "سننزل عند منزلي!" أطلقت الكلمات وسط دهشة يزن التي كانت ترتسم بوضوح. لا وقت للشرح، فلا تزال الثواني ملهوفة للرحيل.

وصلنا منزلي عند الساعة 3:30 بالتمام، ثلاث دقائق فقط قبل الوقت المحتوم، اقتحمت الباب بمفتاحي، لأول مرة دخلت غرفة والدي وسرقت مفتاح السيارة بحركة لص ماهر، وبالعودة إلى الخارج كان الجميع ينتظرون بقلق فادح.

أقفز خلف مقود السيارة ونبدأ الرحلة المحمومة، عيناي تتصلبان على الطريق وأنا أنطلق بالسيارة كالصاعقة. لحظات ونصل إلى الحديقة بمهارة الطيّار الذي يجد طريقه بين العواصف.

هناك، الساعة الملعونة تشير إلى 33 : 3 ، "لقد فات الأوان" قلتها و انا اشدّ على الفرامل. لكن لا، لا يمكن أن تنتهي هكذا، توقفت أمام سيارة كبيرة بيضاء كانت للتو تنطلق من المكان. العملية جارية ولا بدّ من تدخّل سريع.

"هل تعقب هاتف ماسا لايزال معك؟" سؤالي ليزن الذي أشعل حاسوبه المتنقل وبدأ في تتبعها. تضيق حدقتا عيني ويده ترقص على لوحة المفاتيح، كانت اللحظة شديدة التوتر.

تنطلق خلف السيارة، القلب ينفخ ضرباته كأنغام موسيقية متوترة. يزن على الهاتف، صوته يخترق الهواء إلى الشرطة، ينقل الحادثة بتفاصيلها.

"لماذا تتصل بالشرطة؟" تساءلت وأنا لا أزال موجهًا تركيزي على الطريق، إلا أن صوت العقل كان واضحًا من يزن، "أتوقع لأننا نلاحق خاطفين، ما هذا السؤال يا عيد !"

مشاعر الغضب والتحدي تعبّر عن نفسها في تصعيد السرعة، ألحق بسيارة الخاطفين، أزيد الضغط، أجبر الوحش الأبيض على التوقف.

نخرج جميعًا، خمسة أشخاص نحن، نقف في تحدٍ أمام ثلاثة منهم.

صوتي يخرج لا إرادي "اتركهم !" يصم الآذان، ردّ الخاطفون بتحذيرات مشحونة انتهت برفع الأسلحة. الصراع يتطلب منا تأنيًا ودهاء.

نبدأ في لعبة القط والفأر بالتراجع، يزن ينصحني بشكل سري، "أضع وقتًا للشرطة للوصول."

المناورات تستمر وأنا أخفي يدي خلف ظهري اتظاهر بإخراج سلاح، خدعة لا تقل ذكاءً عن الخطة السابقة. لحظات و يأتي صوت الشرطة، يغمر المكان مثل ثورة عاتية، والخاطفون يدركون أن اللعبة قد انتهت.

لا يصدقون، أحدهم يمتلك رهانًا مجنونًا، يأخذ روان كرهينة. التوتر يملك قلوب الجميع، الوقت يداعب نظرات الجميع، التوتر العقلي يتزايد، وفجأة يزن يقترب بذكاء وبخطوات متأنية، يوجه ضربة قوية تطيح بالخاطف إلى الأرض.

الشرطة تعلن انتصار النظام، تقبض على الخاطفين. بينما أسرعت إلى سيارة المجرمين، أرى ماسا المكبلة بالحبال والدموع. نظرتها إلى عيني تكاد تخترق روحي، تحتضنني وهي تبكي، فملأت احتضانها فجوة وجودي، تلك اللحظات التي كانت خير شاهد على إنسانيتنا التي حاول البعض سرقتها منا.

في خضم التوتر الذي قد انفرج للتو، نظراتُ روان التي حملت أثقالَ صدمة لا تستطيع كلماتي نفيها، نحول الانتباه إلى ماسا. جسدٌ يرتجف وعينان غرقتا في بحر الرعب، أخذتها جانباً وحاولت استعادة شيء من الهدوء لها، أمسك قارورة الماء وأناولها إياها برفق، محاولاً تعويض جزء من السلام الذي سلب منها.

بينما يتابع يزن والباقون الحوار مع الشرطة، تقترب روان التي كانت تغلفها هالة من الخوف، صوتها المرتجف بسؤالٍ يحمل وزر اللحظات الصعبة، "كيف عرفتم؟ كيف كنتم في الوقت والمكان الصحيح؟"

كانت عيناها تقصفني بنظرات الاتهام والدهشة، كما لو أن ثمة سر أكبر يلوح في الأفق. "ماذا تقصدين؟" قلت لها بصوتٍ واضح وملء بالتساؤل. إلحاحها كان واضحاً للبوح، "فقط سؤال... أخبرني!" صوت يكاد ينكسر تحت وطأة اللحظة.

حينها، كنت أعي تمامًا بأن هذا ليس وقت الأسئلة العميقة والحوارات الجانبية. "ليس وقتًا مناسبًا للتحدث. سنتناول كل شيء في حينه"، حاولت أن أؤجل الحوار الدائر إلى وقت يسمح فيه الوضع بأخذ نفس عميق وتبادل الحديث بوضوح.

ماسا، التي كانت ذراعاها تمتد نحو الاستقرار، قاطعت حديث روان بلطف ورزانة، "ليس وقتًا مناسبًا. . ." صوتها، وإن كان خافتًا، حمل قوة كبيرة في جبر الصمت وتقديره.

جلسنا جميعًا، أعيننا معلقة بالأحداث الأخيرة التي أرادت لها السماء ألا تتركنا جزءًا من كونٍ مغلق، ونحن نتجمع معًا كأوراق قد تبعثرتها الرياح، لكن القدر أجاد ربطها في كتاب الحياة من جديد .

تهيأت أروقة مقر الشرطة لتكون مسرحًا لفصل جديد من أحداث يومنا العصيب؛ الأضواء الصاخبة والوجوه الجادة قد عكست جوًا لا يُقارن بما نحن معتادون عليه. في أثناء ذلك، سرى الدهشة في الأرجاء حينما دلف والد يزن، شخصية معهودة في أروقة الأمن، إلى المشهد . خطواته الراسخة فاجأتنا، إذ لم نكن نعلم سبب حضوره السريع كضابط أمن في تلك اللحظة.

لـم يكـن يزن أقل استغرابًا منا، وعلى سؤالي الملح "والدك هنا، لماذا أتى؟" أجاب ببساطة "لا أعلـم." اتجه فورًا لملاقاة والده، الذي بدا من ملامح وجهه المستغربة وكأنه يحاول ربط أطراف القصة معًا.

تقابلا في لحظة صمت محموم وتبادلا أطراف الحوار؛ يزن يدافع عن موقفه ببلاغة والده يستمع بفهـم وجدية. من ثـم عاد يزن ليجذبني إلى جانب؛ وتساقطت من شفتيه أخبارٌ كالصاعقة: الجناة الثلاثة المقبوض عليهـم متهمون بحادثة إطلاق نار. لحظات الصدمة فنحن من اطلق النار و كنا ثلاث اشخاص لحظة اطلاق النار, تـم ربط احداث هذه القصة بقصة اطلاق النار على والد ماسا بالتأكيد و والد يزن هو المسؤول عن تلك العصابة، "يا الهي" قلتها لا ارادياً و انا غارق في تفكيري.

في خضم تلك الرؤى والأحكام الذاتية، حضر ضابط آخر ليسبر عمق القصة من ماسا وروان. خلا له المكان، ومن ثم حان دورنا لنسمع أسئلته التي تنقب عن سبب وجودنا وشجاعة مطاردتنا. كان لزامًا عليّ أن أختلق، فقلت بثقة أنهم أقرباؤنا وأننا اتفقنا على لقاء بعد خروجهم من الحديقة، وذلك أمام عيوننا رأيناهم يُخْتَطفون.

تقبل الضابط الكلام بهزة رأس بسيطة وأمرنا بالرحيل. نشرت الوداع بين الأرواح التي امتزجت مرغمة في ذلك النزق، فأوصلت ماسا وروان إلى عتبات بيوتهم ووعدتهم بالحديث القادم.

وعندما وصلت المنزل، أسدلت الستار على مفتاح السيارة في يد والدي، مجترًا القصة بنسخة منقحة، أُمسكت بأعقاب الأوراق لم تسقط. بثقة تحمل التعب، قلت إن ماسا قد اتصلت وأسرعت للمساعدة. وما من شك، كان رد فعل والدي مغمورًا بالفهم، فأشاح بالمشكلة ونصح بأن أصارحه في المرات القادمة كي يكون سندًا لي. وأمي، ذات العيون التي تحمل السلام، حمّلتني الراحة بموافقتها.

انسحبت بهدوء إلى عزلتي، أولت غرفتي وقذفت بثقل اليوم على السرير مع زفرة تركتها الروح محتضنة الإجهاد، غاطسًا في نوم عميق بعد يوم لم تدّخر لحظاته حماسًا وعبئًا وثقلًا.

الحلقة التاسعة والعشرون:

هل هي البداية؟

عيد:

تغشاني نسائم الصباح برائحة الأزهار المنتشرة في حديقتنا، معلنةً عن بزوغ يوم جديد . استيقظ من نوم عميق، يوم العطلة هذا يبدو مختلفًا، السماء صافية والشمس تتراقص على النوافذ كأنها تدعوني للاستمتاع بهذا اليوم بكل ما فيه. أغادر غرفتي متجهًا نحو مائدة الإفطار حيث ينتظرني والداي. الجلوس معهم وسط أحاديث الصباح المنعشة شيء لا مثيل له. الجو في المنزل هادئ، الجميع ينهمك في نشاطه، والدي يتابع الأخبار على التلفاز وأنا أتصفح هاتفي بفضول.

أمي تنادي، وعلى إيقاع صوتها نجتمع حول الطعام.
تتشارك الضحكات ونجتاز وجبة الإفطار بروح الألفة. وبعد أن امتلأت القلوب قبل البطون، أعود إلى غرفتي، ألقي نظرة على الساعة التي تشير إلى الحادية عشرة صباحًا. في هذا الهدوء أقرر إرسال رسالة إلى ماسا، "هل أنتِ مستيقظة؟" الترقب يملأ الحجرة، إلى أن انقضى نصف ساعة وجاءني الرد، "نعم، أنا مستيقظة."

لا أضيع وقتًا، وأطرح عليها السؤال الملح: "ألا تريدين أن تتحدث عن حادثة الأمس؟"

وبسرور تتجاوب معي، "نعم، أريد. متى؟" أخبرها أن بعد نصف ساعة سنلتقي وأضيف أنها يمكن أن تدعو روان أيضًا إذا رغبت، وتوافق.

أغلق الهاتف وأجلس على حافة السرير لبرهة، أتنفس بعمق كأني أستعد لمواجهة ذكريات اليوم الماضي. ثم بحركة سلسة أرتدي ملابسي، وأغادر غرفتي بعد أن أخبر والديّ بأنني سوف أخرج. الهواء الخارجي يشعرني بالانتعاش، أخطو باتجاه منزل ماسا الذي لا يبعد كثيرًا، أقف عند المدخل وأتصل بها. "أنا بالأسفل"، أقول. قريبًا تظهر ماسا، نتبادل السلام، وننطلق معًا نحو المقهى حيث روان بانتظارنا، وأنا كلي ترقب لما سيحمله هذا الحوار من آمال وربما بعض التحديات.

يبدو أن الأجواء متوترة بيننا، روان تنظر إلي بعيون مليئة بالاستفهام، بينما ماسا تنظر إلي ببراءة لا تخفي القلق الذي يدور في داخلها. أحاول تجاهل التوتر الذي أشعر به وأقرر أن أبدأ الحوار. أخبرهم عن الورق التي ظهرت لي، عن التفجير، عن الاختطاف، بل عن كل شيء ما عدا والد ماسا. أسلمهم الأوراق ومع كل ورقة أرى تعبيرات وجوههم تتغير. عندما يتلقون الأوراق، أرى وجوههم تبدي مزيداً من الدهشة.

روان تنظر بسرعة الى ماسا، وهما يتبادلان نظرات خاطفة، أشعر أنها تعلم شيئاً لا يعلمه الآخرين، أشعر بالقلق، فأسألهم:

"هل هناك شيء تريدان قوله؟"

تهدأ روان قليلاً وتطلب مني أن أكمل، فأبدي عن رؤيتي للطيف الأسود الذي أغشى علي في اللحظة التي اقتربت فيها منه. ولكن في اللحظة التي ذكرت فيها أنني رأيت حلم، انقبضت ماسا في مكانها وتساءلت بسرعة: "هل كان الحلم عن شخص يرتدي ثوبًا أبيض ولا يمكن رؤية شيء آخر؟"

أنا متأكد أنني لم أتحدث عن هذا الجزء من الحلم مع أحد، فكيف عرفت؟ لحظة خوف تتساقط على وجهها، أتساءل ما الذي يخيفها؟

أطلب منهم الكشف عن المزيد لكنهم يصرون على السكوت.بعد أن انتهينا غادرنا المقهى ولكل منا طريقه الخاص، أشعر بالامتعاض من الأسرار التي يبدو أنها ستظل على حالها.

منزلي في أمان الليل يبدو كملاذ بعد يوم طويل من القلق. اتصل بصديقي يزن وأشاركه كل شيء. يبدو أن الوقت قد حان لنكشف أخيرًا عن شيء جديد.

ماسا:

لا يزال صدى لقائنا في المقهى يتردد في أعماقي، وأنا الآن أقف متحجرة في غرفتي، الخوف يعصر قلبي وأرى القلق يلون نظراتي. روان بجانبي وهي تحاول تهدئتي، لكنني أعلم أن ما نواجهه لا ينتمي لهذا الواقع المألوف.

روان تكاد تكون محقة، هذا غير طبيعي، غير مفهوم. من يكون ذلك الظل الأسود؟ وما الذي يعنيه بظهوره؟ نظرت إلى الورقة التي ظهرت لنا، تلك التي تحمل التاريخ والوقت وكلمة "ندبة"، وكأنها جزء من لغز كبير نحن مجبرون على حله.

روان توحي بأن للظل الأسود دورًا في كشف السر، لكن كيف نقترب من شيء بهذا القدر من الغموض؟

لقد حملت الرأس أفكارًا، لكنها تعود مجددًا للصمت. أثير التساؤلات حول عيد ومدى ارتباطنا به في كل ما يحدث. تذكرني روان بالأوراق التي ظهرت لعيد وكأن هناك رابط خفي بيننا.

أحاول تجميع خيوط القصة المتناثرة بين يدي، لكنني أزداد توترًا وتشتتًا. روان تسأل إن كشفت لوالدي ما جرى، وأذكرها بأنني فعلت وانزعاجه الذي أدى به إلى مركز الشرطة رغم إعاقته. عودته بلا أي جواب تزيد من حيرتي.

روان تؤكد على ضرورة أن يكون والداي على دراية بكل شيء عدا قصة الورق و كل ما يخص عيد من طيف و حلم و حتى أوراق.

أشرح لها أن الخاطفين ومن أطلق النار على والدي كانوا ثلاثة، وأقرن بين الندبة على يد أحدهم والتاريخ والوقت المكتوب على الورقة.

روان توافقني الرأي، وأشعر أن الأمور تتجه نحو مواجهة غامضة مرتبطة بعيد. القلق يغمرني، والخوف يصبح على وجهي كالحجاب الذي لا يمكن إزالته.

روان تحاول تهدئتي، تطمئنني بأن عيد قادر على حماية نفسه، لكن قلبي لا يزال يعتصره القلق، وأنا أحاول جاهدة إيجاد طريقة لحمايته من الخطر الذي يلوح في الأفق.

في غمرة حديثي مع روان، تتسابق الأفكار في رأسي، وأجد أن التوتر يضغط على أنفاسي. "الشخص صاحب الندبة يعرف والدي بلا شك..." أتمتم بها بيني وبين نفسي قبل أن أرفع صوتي لتسمع روان. "ورقة تحمل كلمة 'ندبة' وتاريخ محدد، بالتأكيد هناك معنى خفي وراء كل هذا، وأخشى أن يكون ذلك الضرر المتوقع سيقع على عيد."

أنظر إلى روان بعيون ملؤها الدموع، لأعبر عن مخاوفي، "أنا خائفة جدًا على عيد، أشعر أنه سيكون هدفًا لشيء ما، شيء ما يرتبط بذلك الشخص ذي الندبة، وربما والدي أيضًا." أحتاج إلى فعل شيء، لكن الغموض الذي يلف الأحداث يضعني وروان في موقف نحار فيه بين القلق وعدم اليقين حول كيفية التعامل مع ما قد يحدث.

يزن:

تدور في رأسي عاصفة من الأفكار والمعلومات بعد أن أخبرني والدي بكل ما يعرفه، كأن كل شيء يتشكل في ضباب الذهول. أخذت لحظة في الغرفة لأستوعب ما سمعت قبل أن أقوم بخطوتي التالية. كان لا بد من الاتصال بعيد وأن نجتمع لمناقشة هذه التطورات المقلقة.

وافق عيد على أن نجتمع في منزله، وبدون تفكير، انطلقت مسرعًا لأخبر عمار أن يأتي ليكون جزءًا من هذا الاجتماع الطارئ. ما إن اجتمعنا حتى أخذ عيد المبادرة بالسؤال عن سبب العجلة.

بتنفس عميق وكلمات متزنة، نقلت لهم ما أفصح عنه والدي.

"الأشخاص الذين اختطفوا ماسا يحملون نفس السلاح الذي استُخدم في حادثة إطلاق النار على والدها، ويبدو أن الأمر يتعلق بتجارة المخدرات وبخلاف مالي مع والد ماسا." وأضفت، "لكن الشيء الأكثر تعقيدًا هو أنه نحن من أطلق النار على والد ماسا، وكنا نرتدي أقنعة، مما يعني أن التشابه في التفاصيل يجعل الظن يذهب إلى أن الفاعل هم."

عيد يستمع بجدية وتوتر بينما عمار يختم بكلمات توحي بحجم الصدمة والتشابك في الأحداث، وهو يواجه هذا الوضع المعقد بتشبيهه بأفلام الإثارة، لكن مع الأسف نحن منغمسون في هذا الواقع الغريب والمخيف، وعلى عاتقنا يقع وزر حل هذا اللغز.

مع كل كلمة أُلقيها في الجو، وأنا أرصد وجهيهما عن كثب، ملاحظًا تلك النظرات المتبادلة بين عيد و عمار. "لقد صدمتهم القصة كثيرًا، لكن هناك شيء آخر. ." قال عيد بنبرة حذرة متحدثاً عن روان و ماسا، و كأنه كأنه يحاول تفكيك لغز مُحكم الإغلاق. "أشعر وكأنهم يخفون عني شيئًا، شيء لم يجرؤوا على البوح به حتى الآن."

يتصاعد التوتر في الغرفة، والصمت يكتنفنا جميعًا للحظة. من الواضح أن في القصة ما لم يُروَ بعد، شيء مهم، شيء ربما يكون مفتاح الغموض الذي يلف موقفنا. "علينا أن نسألهما مباشرة، نحتاج إلى معرفة كل شيء إذا أردنا حل هذا اللغز وضمان سلامة الجميع."

أشير بحزم، وأعلم أن ما سيتبع هو مواجهة مع الحقيقة، مواجهة قد تكون قاسية لكنها ضرورية.

عيد:

تتموج الحياة من حولي كبحر متلاطم الأمواج، تارة تقذفني نحو شواطئ الأمان، وتارة أخرى تجرفني إلى أعماق مخاطر لا أمل لي في قياسها. كل يوم يمر يضع أمامي تحديًا جديدًا يحفز على الرهبة والدهشة معًا، وكأن أوراق تقويم حياتي تُطوى بسرعة تفوق الزمن نفسه.

أشعر بثقل السنين ينوء على كتفي، وكأن روحي قد تجاوزت عقد الأربعين بالتجارب التي خضتها، ولم يكن سرد قصص الحروب التي استمعتُ إليها من كبار السن يومًا بتلك الروعة التي أعيشها الآن، حيث كل خطوة هي خوض في معركة عميقة لم أخترها، لكنها اختارتني.

الخوف يلقي بظلاله على كل جانب من جوانب وجودي؛ خوف على ماسا، تلك الروح الرقيقة المحاطة بخطر لا يُحتمل، خوف على نفسي وما يمكن أن أتحمل من تبعات لهذا الجنون الذي نحن فيه، وخوفٌ على أصدقائي الذين أراهم كنجوم في سماء انتشاري، نجوم قد تخبو إن لم نحسن التصرف.

ها أنا أقف على خط النار، بينما أختزل عمرًا من الحروب في أيام معدودة، متمسكًا بفكرة أن بإمكاني صناعة فارق، وأن بيدي وبيد رفاقي زمام تغيير مجرى هذه القصة التي تبدو كل يوم أكثر تعقيدًا، ولكن الأمل... الأمل لا يزال يلوح في الأفق، نبراسًا يُضيء دروبنا العتيقة.

في رحلة الحياة، هناك لحظات من السكون تمامًا

كشهر ونصف الماضي؛ فترة طغت عليها الهدوء

والسلام، وكأنها استراحة لمحارب استنفد قواه في

معارك طاحنة والآن يلتقط أنفاسه بين جولات القدر

الآتية. لا وثائق تورطُّنا، ولا عصابات تطاردنا،

حتى إيذاء الأرواح اختفى.

ومع تجلّي هذه الهدنة، نسجت قصة فريدة مع ماسا؛

تلك العلاقة التي صقلتها الأيام وجعلتنا قريبَين إلى

حدود لـم نتوقعها، ومع أن القرب الجغرافي بات واقعًا،

يظل القرب الروحي هو المهد الذي ترقد فيه الودائع

العظيمة. ما أبحث عنه هو قربٌ من نوعٍ آخر، عمق

يتجاوز المودة إلى ارتباط يتحدى القدر نفسه.

ماسا . . . أول فتاة أحببتها بحياة كانت معتادة على المشاعر المتقلبة. أشعر بأن الأقدار تعبث بنا، فلا أرى منها إشارات تؤكد ما يختلج في صدري من مشاعر، ولا أملك الشجاعة لأصوغ ما يعتمل في قلبي إلى كلماتٍ واضحة. أريدها أن تعلم بلطف ما أكنه لها دون أن أخسر هذا القرب الثمين الذي تحقق بيننا .

تُرى، ما الخطوة التالية؟ كيف لي أن أكسر جدار الصمت المُريب بيننا، التقدم أمامها بقلبي مفتوحًا دون خوف أو تردد؟ القرار ليس سهلاً، والمسار مليء بالحذر، لكن العزيمة تبقى، والأمل ينمو بأنّ تحتضن القادم من الأيام ما أرغب به وما تحتمله أرواحنا من مودة تتعدى حواجز الوقت والظروف.

لا شك أن تقلبات الحياة الجامعية يمكن أن تشكل كابوسًا حقيقيًا، خاصةً عند تعقيدات القلب ومشاعر الغيرة التي تسري في العروق كجريان النهر الهادر.

ما كان في البدء تجربة مُفعمة بالحماس والجمال تتحول في غفلةٍ من الزمن إلى واقعٍ ملبد بغيوم الحيرة والضيق.

رؤية ماسا مع آخرين، كرشاد وغيره، تُثقل كاهلي بشعور الغيرة الذي لا يُحتمل. هذه المشاعر الثقيلة تجعلني أرى كل من حولي بعين التجني والنفور، إلا جمانة، التي يبدو أنها تحمل في أعماقها عالمًا مغايرًا، جسرًا للنفس إلى حديقة السلام والصداقة الحقيقية.

لو كان ممكنًا أن يتخذ عالم ماسا منحى كعالم جمانة، لتحولت كل نظرةٍ وكلمةٍ إلى خيط رفيع يوحد بين القلوب. و اسأل، كيف لي أن أتحدث إلى ماسا بصراحة؟ كيف أعبر عن هذا الاضطراب الداخلي الذي يفتت الصمت إلى كلمات تعجز عن الانطلاق؟

ماسا:

مع تسارع نبضات القلب ورقص الأيام ما بين طيات الضوء والظل، تمر اللحظات سريعة كأنفاس الصباح الباكر.

كان هناك شعور مزدوج يسكنني كلما رأيت عيد مستغرقًا في أحاديث مع أصدقائه. من جهة، يمنحني الطمأنينة أن يكون بينهم وليس خارج نطاق تلك الدائرة، ومن جهة أخرى، تغلي نيران الغيرة في داخلي عندما تحل جمانة محلي بجواره.

هي لم تفعل شيئًا يستاهل كل هذا السواد من المشاعر، لكن وقوفها إلى جانبه كفيل بأن يزرع بذور الحسد في قلبي.

التقينا في المقهى المعتاد، أنا ومروان والوافدتان الجديدتان، سارة ولين. كانت الأصوات متموجة بالحديث والضحك، وبدا أن الانسجام قد تخلل بيننا بشكل طبيعي، وأحسست بانعكاس أفكاري في ثرثرتنا المشتركة.

وسط أحاديثنا المتنوعة، لفت انتباهي عيد في الخارج يتحدث بجدية عبر هاتفه. استأذنت من الفتيات وتوجهت نحوه بخطوات تحمل في طياتها حماسًا وقلقًا. وقفت بصمت انتظارًا له ليختتم مكالمته، وعندما أنهى ورآني، كانت ابتسامته كفيلة بأن تجعل العالم حولي يتوقف.

بادرنا بالتحدث، ودون أن أدرك، تفلت مني الكلمات سائلة إياه، "لم لا تقضي وقتاً بجانبي سوى في أوقات محدودة يا عيد". فسر لي بحس معقول أن الجلوس مع رفاقي الإناث يمكن أن يثير حديث الآخرين، لكنه طمأنني بأنه سيحرص على تواجده بجواري في الأوقات المناسبة. شعرت بتقدير خاص لتفهمه ومساندته.

كنا في منتصف الطريق إلى الطاولة مع الفتيات عندما توقفت ودار في خلدي ألا أضغط عليه ليجلس في وضع قد لا يرتاح له. تجاهلت الدعوة التي كانت تصر عليها قلبي واقترحت ببساطة أن نجلس بمفردنا.

رضخ لطلبي بابتسامة وافقة، وجلسنا نتشارك الأحاديث الخفيفة والقصص من حياتنا.

بعد مرور الوقت، وقبيل بدء محاضرته، غادر عيد وعدت أنا إلى رفاقي، لكن لين فاجأتني بسؤالها "هل هذا الشاب يكون حبيبك؟". شعرت بالدهشة تجتاحني، وحتى روان شاركتني النظرات المذهولة قبل أن تتفجر في ضحكة جامحة.

وبينما لين تنظر إلي بعينين تملؤهما الاستفهام والمرح، لم أستطع سوى الاستسلام للصمت. قالت روان دون اي أسباب "أجل حبيبها"، شعرت بالحرج يتزايد داخلي، ولكنني لم أجد رد لتلك الكلمات.

قضينا وقتًا ممتعًا أكثر من المعتاد، وبعدما انصرف الجميع، توجهت إلى روان لاستوضح منها السبب وراء تلك المزحة. لكن يبدو أن الضحكة التي لم تفارق شفتيها كانت كافية لتخبرني بكل شيء. ورغم استسلامي للضحكة، لم أكن أقل حيرة من قلبي الذي لا يزال يتساءل، ما الذي يخبئه الغد لمشاعر متقلبة كالرياح؟

الحلقة ثلاثون والأخيرة

9/1

عيد:

في أعماق الليل، حينما يكتنف السكون الكون وتغفو الأرواح الناعسة على وسائدها، كان هناك إيقاع خافت يدق في داخلي. استيقظت باكرًا قبل أن يبزغ فجر جديد، في ساعة لم يعتد جسدي أن يغادر فيها الفراش. الظلام يلف الشوارع والسكينة تحتضن الزوايا، يشكل هذا مشهد الهدوء المثالي الذي أشتاق إليه.

في غرفتي، استرق النظر إلى الخزانة لأجد علبة السجائر كما تركتها؛ تلك العلبة التي لطالما حملتها معي لكني نادراً ما استعملتها، وتساءلت لبرهة عن الدافع الذي جعلني أشتريها. شيء ما دفعني إلى حملها ووضعها في جيبي.

ارتديت ملابسي بحركات آلية وانزلقت بصمت إلى الشوارع المظلمة، ليس هناك أحد، فالجميع غارقون في نومهم. بخطوات واثقة خرجت إلى العراء، وأخذت سيجارة من العلبة، أشعلتها وبدأت بالتنفس مع الدخان، تاركاً للذكريات تطفو على سطح تأملاتي.

مع كل سحبة، كانت صورة ماسا تغزو خيالي، تذكرت ضحكتها، عينيها، واللحظات التي قضيتها على جانبها. أتمنى لو كانت تعلم مدى العمق الذي تحتله في قلبي.

أمامي تتراءى الحديقة، المكان الذي شهد على حكايات جميلة، وهناك، تذكرت الورقتين التي دفناها،

"أريد أن أتزوج..."كتبتها ماسا على الورقة نقشت في ذهني ولكن من هو الاسم الذي حجبته دقات قلبي عني؟ الفضول كان ينهش أفكاري، ولكن الوعد بيننا كان حاضراً ويقظاً، عدم فتح تلك المعلومة ورؤيتها.

أغمضت عيني ورأسي انحنت أمام الوعد، وفي لحظة صفاء، تذكرت ذلك اليوم، يوم الخطف الذي كاد أن يقلب حياتنا رأساً على عقب. كانت ماسا و روان في الحديقة في ذلك الوقت، ماذا يفعلون هناك يا ترى، أحسست بضغط يقبض قلبي وأنفاسي تتسارع.

جلست على الرصيف أفكر فيما قد يتضمنه غدٌ لا يمكن التنبؤ به، ثم انتقلت نحو الشجرة التي ارتبطت بذكرى الورقتين. لكن الأرض كانت خالية من العبث، لا يوجد اي آثار حفر، لا أعلم.

بدأت أحسب الساعات بعقل منشغل وقلب يخفق برغبة في الحوار، أتطلع إلى اللحظة التي سألتقي فيها بماسا في الجامعة، لأسألها وأكتشف ما خطته يداها وما هو السر الذي احتفظت به لنفسها.

بخطوات هادئة وأنفاس منتظمة، تسللت إلى داخل المنزل وقد سبقتني شعاعات الفجر بقليل.

تمكنت من دخول دون أن أوقظ والديّ، حيث كان من المهم ألا يستفقداني ويقعا في هاوية القلق والخوف. تمكنت، بفضل الصمت المحيط والهدوء الذي يملأ الغرف، أن أبقى مختفيًا عن أعينهما المترقبة.

جلست في غرفة المعيشة، تلك الغرفة التي شهدت على تجمعاتنا العائلية الدافئة. أمسكت بجهاز التحكم برفق وبدأت بتصفح القنوات، بحثًا عن شيء يمكن أن يشغل تفكيري حتى طلوع الشمس. بين الرياضة، الأخبار، والبرامج التلفزيونية، استقرت عيناي على قناة الكرتون.

لسبب ما، أحسست بنوستالجيا قوية تجتاحني، تحن إلى تلك الأيام البسيطة حيث كان الخيال يأخذني إلى عوالم بعيدة، حيث لا هموم تقلق منامي ولا قلق يثقل على قلب صغير. كانت الشخصيات الملونة وقصصها التي تتحدى الواقع هي ملاذي الآمن، وكم تمنيت للحظات أن أعود إلى تلك الفترة الخالية من المسؤوليات.

فجأة، قطع الأناشيد الكرتونية رنين هاتفي. "ماسا"، كُتِبَ على الشاشة بأحرف واضحة. قمت بالرد بابتسامة تلقائية "أهلاً ماسا. صباح النور يا ماسا".

ماسا بتحيتها الصباحية جعلت الهواء يبدو أقل ثقلاً، أخبرتها بأني أود اللقاء بها الآن قبل ان يأتي موعد الباص. "سأراكِ عند بنايتك، كوني هناك"، قلت مع وعدها بأن تكون في الانتظار.

عند النزول، وجدتها كما وعدت، تقف هناك ببريق عينين يختلط بين الحماس والقلق. تبادلنا التحيات والأسئلة سريعًا قبل أن نجلس على الرصيف المجاور، في زاوية تتيح لنا بعض الخصوصية.

بعد لحظات من الصمت، بادرتها بالسؤال الذي يحرق داخلي.

أحسست بتلك النبرة التي خرجت مني وكأنها تحمل ثقل الدنيا. "لماذا كنتِ في الحديقة، يا ماسا؟" قلبي كان يدفع الكلمات خارجاً ولم أستطع تخفيف وطأة التوتر الذي بدت عليه ماسا.

تاهت ملامح ماسا لبرهة بين الإنكار والاعتراف، لكن بعد حثي المستمر، أخبرتني بصوت مرتجف اعترافها بمحاولة كسر وعدنا والتسلل إلى تلك الورقة التي كنت قد دفنتها. تلك الورقة التي خبأت بين ثناياها أعمق أسراري.

ضحكت، ولكن برفق، وذكّرتها بوعدنا، بينما نظرات الشغف لا تزال تتقد في عينيها. "حسنًا، ماسا، هل ترغبين في كسر الوعد؟" سألتها بمكر.

واقترحت اقتراحًا جريئًا، أن نأخذ الأوراق معنا إلى الجامعة ونفتحها هناك، كلٌ في مكان بعيد عن الآخر.

بادرتني بالرفض في البداية، لكن المغامرة بدا أنها تجذبها تدريجيًا. وبعد برهة من التأمل، وتحت ضغط الوقت وقرب موعد الباص، قررت بتردد أن نقوم بذلك.

مع بزوغ الفجر، وقفنا سويًا وقمنا بفتح الحفرة مرة أخرى، وأسرعت ماسا بالتعرف على ورقتها. مدت يدها لتمنحني ما كتبته بينما أخذت ورقتي بحذر.

ما زالت علامات التوتر ترتسم على ملامحها الحلوة حتى بلغنا موقف الباص، كلانا يتأمل مجهول ما ينتظرنا بين ثنايا الأوراق المتبادلة.

ماسا:

استقرت الذكريات بلا هدوء في زوايا قلبي وأنا أصعد إلى الباص مجددًا مع عيد. رغم الزحام الصباحي والأصوات المتداخلة، كان خفقان قلبي هو الأعلى، يملأ الفضاء حولي بلحن قلق لا يعزفه إلا الخوف. نظرت إلى عيد متساءلة، بصوت خافت، كمحاولة أخيرة للتأجيل: "عيد، ما رأيك أن نؤجلها؟" استدار إليّ بنظرة جادة: "لا، فات الأوان."

تلك الكلمات، "فات الأوان"، كانت كشفرة سرية تفتح أمامي ذكريات أكثر تعقيدًا من مواجهة بسيطة مع ورقة. "أخاف أن يزداد بُعدها بيننا..." تمتمت بها في سري وأنا أحاول السيطرة على رعشة أصابعي.

أغمضت عيناي في الباص، وكأن النوم كان ملاذًا.

لكن الخوف لم يجعلني أغفو طويلًا، استيقظت لأجد رأسي على كتف عيد، وجدنا في الجامعة. إحساس مفاجئ بالدوار اعتراني وكنت أكاد أسقط لولا يد عيد الدافئة تمسكني، ودقات قلبي لا تعرف كيف تتقن السكون "ليتني أدوخ كل يوم طالما سيمسك بي"

بعدما نزلنا من الباص، توجهنا معًا نحو المقهى، وكان تجنب الحديث عن الورقة هو كل ما في فكري.

جلسنا للحظات قبل أن يتركني عيد مؤقتًا ليلقي التحية على أصدقائه، وجاءت روان لتجلس بجانبي. أسرعت بسرد كل ما في قلبي قبل عودته.

تسللت جمانة إلى المشهد بابتسامتها التي لا تبقي معها سوى شعور بالفتور. كيف لا، وهي تقف بجوار عيد كل فترة و اشعر بنيران داخلي عندما اراها بجانبه، تلك الحقيقة التي لـم تكن لتستسيغها نفسي. تبادلنا التحايا.

لحظات، وعاد عيد ليثير الموضوع مجددًا بعد ان ألقى التحية على جمانة و وجه نظره لي و قال. "هيا لنفتح الورق." ضغطت على جبيني بأصابع تشتاق للتردد "ليس الآن" أجبت، و قال سيذهب ليشتري شيء و أكد أنه لن يتأخر.

غاب عن الأنظار ولم تلبث جمانة أن بدأت بإثارة فضولها المزعج "عن أي ورق يتحدث؟" أجبتها بلكنة استفهام قوية "لا شيء."

وهنا انطلقت روان باعتراف طائش "أسرار بينهم."

ومن ثم نطقت جمانة بجملة أشعلت نيران الغيرة بداخلي "ومن متى هناك أسرار بين عيد وماسا؟" لم أستطع ضبط نفسي "ماذا؟ وما شأنك؟" وهدأتني روان، لكن الغضب كان قد التهم كل ركن من رفقة الصباح.

مضيت بعناد "لا تنطقي باسم عيد مرةً أخرى!" وردت جمانة محتدة "عيد صديقي منذ سنين." وأصريت "لا تقولي اسمه!" جاءت تسأل "هل هو حبيبك حتى تأمرني بذلك؟" ودون تفكير قلت "نعم! حبيبي! هل هناك مشكلة؟" وكأنما أردت تأكيد حقي فيه.

ومع تقاطع الأنظار والصدمات، جاء عيد ليعيد التوازن لموقف تحوّل إلى مشاجرة لا معنى لها، "ماذا يحدث هنا؟" والأسئلة تحوم كطيور لا تجد مأوى.

تجمدت الكلمات في حلقي والزمن كأنما وقف شاهداً على مشهد لم أكن لأتخيله يتكشف أمام عيوني. جمانة ودموعها التي تنساب إلى الخارج دون إذن، وعيد بيديه الحانية يحاول احتواء الوضع، يعقد هدنة مع الحزن الجارف لا تعرف ماهيته.

لا، لم يكن سيناريو لفيلم درامي يتنقل بين قلوب الشخصيات، بل كان واقعًا يرسم أمام عيني.

وأنا، ماسا، في قلب هذا الإعصار، شعرت بنار الغيرة تشتعل بأحشائي، والشكوك تطوق عقلي بأسئلة أكبر من أن تُحمل على أكتافي. "هل جمانة تحب عيد؟ وهل هو يبادلها الشعور؟"

بسرعة البرق وبحسم، أعلنت لعيد ألا يمسها، فوق الخوف الذي كان يكبر في قاع نفسي، لم أفهم لماذا بكت جمانة بهذه الطريقة. وكذلك، لم أستوعب كيف استطاعت دموعها أن تخرج مني الوحش الذي كنت أضمره لمن يقترب من عالم عيد الذي بنيته داخل قلبي.

توالت اللحظات التي يصعب تسطيحها في سطور. جمانة تتمسك بعيد منادية إياه لمحادثة خاصة.

احترقت شرارة غيرتي فجأة، فصرخت: "لا، لن يحدث هذا!"

عيد نظر إلي بصدمة مما أثارته كلماتي من حوله. نسيت للحظة أنه صديق قبل كل ذلك، ولم تتركني حتى الأدرينالين يُجيد التنبيه. "لن تذهب معها"، أعلنت قرارٍ لم يكن لي حتى قررته.

في تلك الدوامة، انتزعت يدها من يده وشددت عيد إلي بقوة جعلت ستار السرية ينقسم فجأة. نظرت إلى يده والندبة التي تقف شاهدة على ماضٍ لم يُكتب بعد في كتاب حياتنا.

كانت عيوني تجوب بين وجهه ويده التي سرعان ما دفنها بين طيات ملابسه. "ماسا"، ينادي، وأنا في عالم آخر تحجبه دموع لا تتوقف. روان تقترب مني، والعالم حولي يصبح كهفًا من الصدى يحمل كلماتها.

وسط الدمع والصدمة، خرج السؤال مني كالرصاص:

"هل أنت من أطلق النار على والدي يا عيد؟" وعيد يكاد يتكسر أمامي، محاولًا أن يشرح، لكن آذاني مغلقة على أي صوت لا يحمل إجابة واضحة.

دفعته وضربت بكل قوتي انا و أبكي من كل قلبي، والأصوات تعلو حولنا وتتداخل.

ركضت خارج المقهى وروان تلحق بي، وأنا أعلن عن رغبة في الاختفاء من هذا العالم.

الطريق إلى خارج الجامعة، روان لصقت بي محاولة أن تحتوي انهياري، وأنا أسقط مغشيًا علي.

برفق، جعلتني أشرب الماء، وجلستني، وبدأت تحيك كلمات لتغطي على الجروح المفتوحة. "ربما الندبة لسبب آخر، لا تستعجلي الحكم." لكني كنت أعرف أنه إن لم تكن الندبة من الحادث، لكان عيد قال فورًا ولما اكتفي فقط بطلب الصبر.

أردت العودة إلى المنزل، وروان بحكمتها تقول خمس دقائق ويأتي باص ليأخذ طلاب سنعود معه. "لا تقلقي"، تحاول إبعاد الوجع عن نفسي التي لا تشتهي شيئًا سوى ألا تشعر بشيء أبدًا.

عيد:

شعرت بفوضى الأحداث تغسل عقلي مثلما تغسل الأمطار أوراق الشجر، تزيل مساراتها وتتركها نظيفة، رغم أن الفوضى في داخلي لم تكن تشبه نقاء الأمطار، بل كانت مثل عاصفة.

ركضت بخطى تعبر عن اضطرابيّ إلى رفاقي تارك جمانة خلفي عائمة في دموعها، يزن كان أول من شعر بجاذبية القصة التي التصقت بوجهي كظلال قاتمة. "ماذا يحدث؟" كمن يقرأ عنوان كتاب مليء بالأحداث. "رأينا هناك أصوات ومشاجرات،" تابع يزن، يحاول أن يلتقط الأحداث.

كان لون وجهي يروي قصة أكبر من كلماتي، شاحب كأوراق خريف لم يعد للحياة بها مكان. "ماسا رأت تلك الندبة التي على يدي." الصدمة دفعت يزن للتراجع خطوة للخلف، وعمار وضع يده بثقلٍ على رأسه، ودانيال وكريم طافوا في فضاء الحيرة الذي كونته حولنا.

"وماذا عن ماسا؟" سأل يزن بتلك النبرة التي تحمل المزيد من القلق من الفضول. "لا أعلم،" تركت الجملة معلقة بيننا مثل غيمة سوداء، "خرجت هي وروان واختفو عن نظري، لا أعلم إلى أين ذهبوا."

أمسكت هاتفي كمن يمسك بخيط الأمل الأخير في متاهة مظلمة. أحاول الاتصال بماسا، ثم بروان، لكن شاشة الهاتف كانت تعكس الصمت في عيوني بكل مكالمة لا تُستقبل.

الفراغ الذي تركته ماسا وهي تركض بعيدًا كان يشبه بُعد السماء عن الأرض، لامتناهٍ وغامض. أود فعل أي شيء لأعيد مياه الفهم الصافية إلى نهر العلاقة بيننا، ولكن السؤال كان يطاردني: كيف لي أن أعيد بناء ما انهار في لحظة؟

ماسا:

في ذلك الوقت، حين توقف الباص أمام باب الجامعة، كانت روحي مثقلة بالأسى كأوراق الخريف التي لـم تعد تقوى على الصمود. دموعي كانت سيلًا جارفًا لا يتقن الهدوء، ومعَ كل قطرة تتساقط، كنتُ أشعر بروحي تتهالك أكثر فأكثر.

الباص كان فارغًا عدا أنا ومروان والسائق نزل من الباص ينتظر طلاب تريد الصعود، يبدو كما لو أن الزمن هنا يسير على وقع مختلف، لكن بالنسبة لي كل دقيقة كانت تلسع جسدي. لا شيء كان يمكن أن يبقيني في تلك الجامعة لحظة أخرى، حيث أصوات الصدمة والإدانة تصنع من كل زاوية سجنًا.

طويت رأسي على الكرسي الأمامي في محاولة لأجد قسطًا من النسيان، لكن شيء ما أيقظني من شرودي، رميت رأسي للخلف وفتحت عينيّ بصدمة غير محتملة. "ماذا بكِ ماسا؟ ماذا حدث؟" سألتني روان بقلق ملموس.

"الندبة.." صدرت الكلمة مني كقصاصة خبر صغيرة تحمل في طياتها قصة كاملة. روان لم أحتاج لاستكمال الموضوع حتى تدرك المعنى. بسرعة، سحبتُ الورقة من محفظتي وكأنما في العجلة مفتاح الغاز.

تاريخ ١/٩، قفز الرقم أمام عينيّ. "ما تاريخ اليوم؟" سألت روان بنبرة مضطربة. "١/٩"، أكدت لي روان بكل هدوء ما كنت أخشاه.

الرجفة تسرق مني السكينة كلما زاد وقع الأسئلة،
والوقت مكتوب على الورقة 9:22 . "ما الساعة؟" تطير
الكلمات مني كفراشات في عاصفة. "9:19"،
جابت الإجابة مسامعي وهي تحمل معها وزن العالم.
صرخت بكل قوة تجمعت لي في تلك اللحظة، إشارة
إنذار لكل ما هو آتٍ "عيييييد..."